في حوار الاديان

مجادلات حول الإنجيل والصلب والدستور المصرى

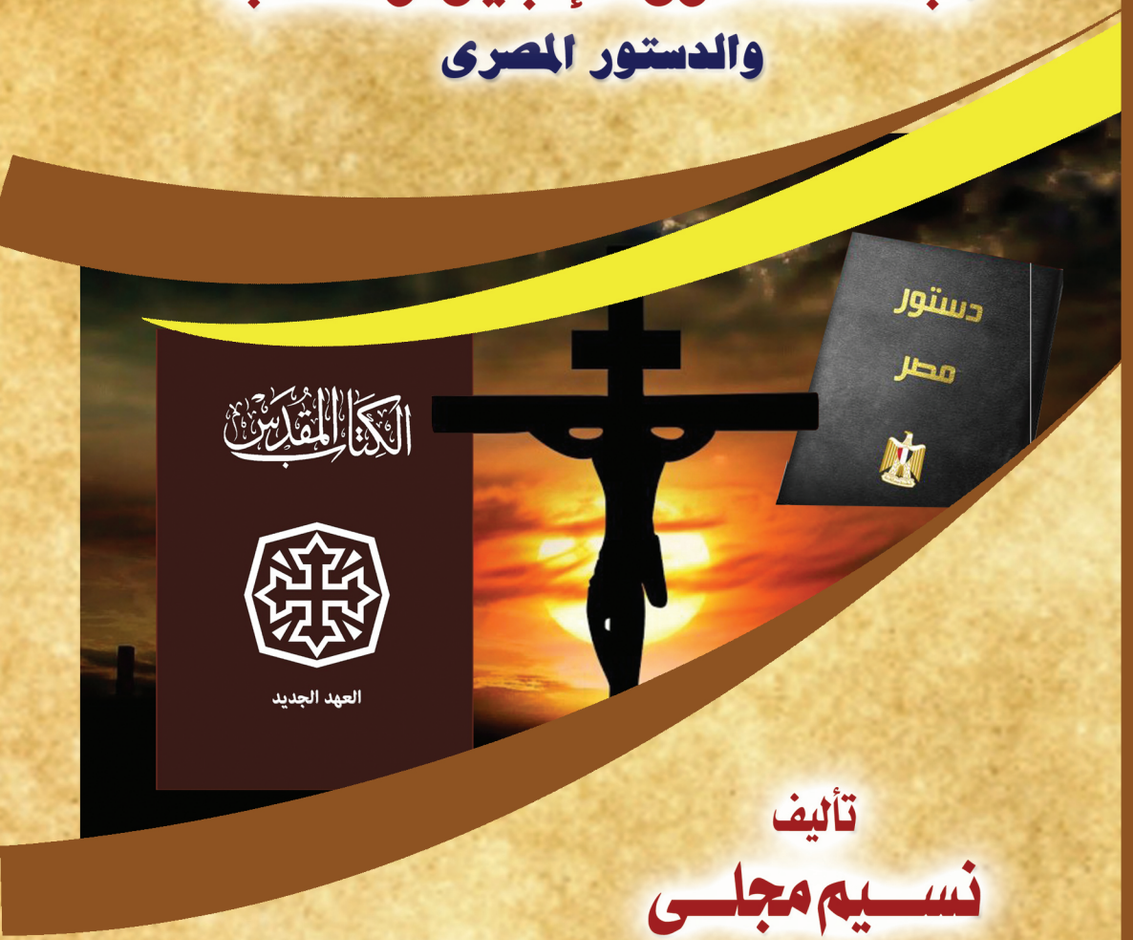

تأليف
نسيم مجلى

لقد أحتضنت مصر المسيحية والإسلام إيمانا من شعبها بوحدة الخالق وأخوة البشر فاجتمعت على أرضها أعظم قيم الحب والتسامح الدينى فى صيغة رحبة تقبل بالتعدد الدينى والإجتهاد الفكرى والمذهبى. إن خبرة هذا الشعب فى التعايش السلمى بين المسيحية والإسلام تؤكد إيمانه الفطرى بحرية العقيدة وحرية التفكير. وهى صيغة حضارية راقية كفيلة بأنقاذ العالم كله من شرور الفرقة والتصارع والإنقسام. وكان ينبغى علينا جميعا كمصريين، مسلمين ومسيحيين، أن نجعل من هذه الخبرة العظيمة، رسالتنا إلى العالم المتنازع والذى يتشوق إلى الهدوء والسلام.

ورغم تعرض مصر فى السنوات الأخيرة لمخاطر التطرف والإرهاب المدعوم بالتفسيرات الدينية الخاطئة الخارجة من كهوف التخلف والإنغلاق العقلى إلا أننا واثقون من هزيمة هذه الفلول المأجورة لتبقى مصر مثابة للإيمان الصحيح، ووحدة واحدة متماسكة غير قابلة للتجزئة أو الانقسام.

فى حوار الأديان
مجادلات حول الإنجيل والصلب
والدستور المصرى

تأليف

نسيم مجلى

اســـــم الكتـــــــاب : مجادلات حول الإنجيل والصلب والدستور المصرى

تـــــألـــــيـــــف : نسيم مجلى

الطـــــــــــبـعـــة : الأولى

الجـمـع التـصـويـرى : دار القديس يوحنا الحبيب للنشر

١ شارع محمد تيمور - سانت فاتيما - مصر الجديدة

تليفون : ٠٢/٢٧٧٥٠١٥٧.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
الفصل الاول	
شخصية المسيح التاريخية	
١- فى الكتابات الغنوصية تزوج المسيح مارى ماجدولين	٥
٢- فى الكتابات الوثنيد القديمة : مثير للقلاقل	١٠
٣- فى الكتابات اليهودية: ساحر ومخادع	١٥
٤- مصداقية الرواية فى انجيل العهد الجديد	١٩
الفصل الثانى	
الحوار بين الاديان	
١- القذافى والهجوم على المسيحية واليهودية	٢٢
٢- هل القرآن ينكر حقيقة الصلب	٣٤
٣- تكفير المسيحيين واليهود	٤٤
٤- تعليق على رسائل القراء	٥٦
٥- الحوار الثقافى مع الغرب	٦٥
الفصل الثالث	
قراءات متصلة بالموضوع	
شفرة دافنشى	
١- حديث الرواية	٨٩
٢- دعوة للاباحية والانحلال	١٠٢
٣- هل الانجيل يعادى المتعة الجنسية	١٠٧

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع **الصفحة**

٤- المجتمع الامومى والمجتمع الذكورى ١١١
٥- موقف الانجيل من المراة ١٢٠
٦- تفكيك رموز شفرة دافنشى ١٢٣

الفصل الرابع

التراث والتاريخ والواقع

١- موسوعة من تراث القبط ١٣١
٢- البيزنطيون والعرب فى ليبيا القرن السابع الهجرى ١٣٨
٣- كتاب كيرياليسون ١٤٨

الفصل الخامس

حول التعديلات الدستورية

١- مصدر التناقض فى مواد الدستور ١٥٤
٢- فهمى هويدى ومجتمع المادة الثانية ١٦٦
٣- رفض دستور الاخوان ١٧٤

الفصل الاول

شخصية المسيح التاريخية

١- في الكتابات الغنوصية تزوج المسيح مارى ماجدولين

كثيرة هى الأبحاث التاريخية التى تمت لاستجلاء الحقيقة حول شخصية المسيح : متى ولد وأين عاش ؟ ماحقيقة هذا الإنسان وماهى صفاته ؟ وماذا يقول التاريخ عنه؟

وفى قراءتى لعديد من الكتب التى تتناول هذا الموضوع قديما وحديثا عثرت على كتاب " ملفات المسيح" The CHRIST FILES لباحث فى التاريخ القديم بجامعة ماكارى فى مدينة سيدنى باستراليا حيث يقوم بتدريس الأصول الأولى للمسيحية والديانات العالمية. وهو كتاب مركز وشديد العمق يشتمل على فحص بالغ الدقة للملفات القديمة والحديثة ولايتحرج من ذكر بعض الشكوك والمزاعم التى علقت بشخصية المسيح او بأناجيل العهد الجديد الأربعة إذ يقول :

"فيما يختص بالمجادلات التى تدور حول الإنجيل والديانة المسيحية، فقد حان الوقت لرفض الأساطير والنظر فى الحقائق . ففى سنة ١٩٤٥ تم اكتشاف ملفات نجع حمادى فى مصر " وقيل عنها إنها تحتوى على أقوال

للمسيح سجلها أحد تلاميذه، توما. وقد رفضتها الكنيسة. وبعد فحص هذه الكتابات يقول جون ديكسون :

" فإننى أقول بصريح العبارة ، ليس هناك بين المؤرخين المتخصصين على مستوى العالم من يمكنه القول أن مجموعة نجع حمادى تحتوى على إنجيل قديم أوحتى على عبارات قالها أحد من تلاميذ المسيح – سواء توما أو غيره. لأن إنجيل توما المزعوم كتب تحت اسم مزيف فى منتصف القرن الثانى الميلادى بعد أن مات توما الحقيقى بقرن من الزمان. وكل ماجاء به عن الحروب والمرأة ليست من أقوال السيد المسيح ولكنها أراء الذين كتبوا هذا النص." وهذه الأقوال هى التى بنى عليها دان براون روايته " شفرة دافنشى " التى تشير إلى أن المسيح تزوج مارى ماجدولين وأنجب منها أولادا.

ولكن هذا النص المنسوب إلى توما لايقول شيئا من هذا القبيل، لكن أولئك الذين يحبون نسج الحكايات الرومانسية وصنع الاثارة صور لهم خيالهم صورة ليست موجودة فى الواقع أو فى التاريخ فلوحة العشاء الأخير التى رسمها دفنشى تصور المسيح وحوله تلاميذه الأثنى عشر وكلهم رجال فمارى ماجدلين ليست موجودة فى الصورة على الأطلاق لا هى ولا أى امرأة أخرى .

إن الأناجيل المعتمدة هى متى ومرقس ولوقا ويوحنا التى تم تدوينها فى القرن الأول الميلادى، والتى نتج عن وجودها صناعة هامة هى كتابة الأناجيل فى القرنين الثانى والثالث للميلاد. ومع انتشار المسيحية فى الشرق الأوسط

أخذت بعض الجماعات المنشقة حديثا تقلد التعاليم القديمة للسيد المسيح وتتوسع فيها وأحيانا تعيد كتابتها، ووضعوا كتبهم بأسماء بعض تلاميذ المسيح القدامى مثل توما وفيليب وماري ماجدولين وهكذا. وبهذه الطريقة استطاعوا أن يزعموا أن المسيح نفسه قد علم هذه الأراء الشاذة .

وكان من الأسباب التى جعلت المسيحيين الأوائل يرفضون هذه الكتب هى صدورها عن مصدر مجهول. فقد عرفت الكنيسة أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل ذلك بخمسين أومائة عام، وفجأة تخرج علينا إحدى الجماعات وبعد مئات السنين فى ١٩٤٥ لتدعى أنها اكتشفت كتابا كتبه توما أو فيليب أو يهوذا أو غيره.

والغريب أن هذه الأناجيل المزيفة أو الغنوصية لاتهتم بما نسميه "المسيح التاريخى". ولا تهتم بمسألة أين ولد يسوع المسيح؟، وأين نشأ؟ وما هى الصراعات التى حدثت بينه وبين السلطات؟، من هم الذين شفاهم وهكذا. فالأناجيل الغنوصية عبارة عن مجموعة من المعلومات وضعت على شفتى شخص مجهول الهوية ليس له تاريخ معروف نزل كالبرق من السماء لكى ينقل لنا بعض الأسرار الخفية، ثم خرج من عالمنا الطبيعى بأسرع ما يمكن، هذا هو التجديد الآخر الذى تقدمه هذه الأناجيل الغنوصية.

إنها تكره العالم الطبيعى، عالم الزهور، وعالم الطعام، وتزدرى الأحاسيس الجسدية وهكذا. إذ تعلم الناس أن إله العهد القديم الخالق كان إلها فاسدا،

ومكانته أدنى درجة من الأرباب. فالمسيح لم يأت ليكشف لنا هذا الوغد وإنما جاء ليخلصنا من ضلالات اليهود ويحرر أرواحنا حتى يمكننا أن نعود إلى الكائن الأسمى الموجود وراء هذا العالم الزائل .

(برغم رؤيتها السامية لعملية الخلق فهذه الأناجيل الغنوصية تعادى السامية). هذا أحد الأسباب التى لم تترك لهذه الكتابات الغنوصية فرصة لوضعها ضمن كتاب العهد الجديد الذى يحمله أغلبية المسيحيين، لأن كل مسيحى يعرف أن يسوع المسيح يهودى، ورغم انتقاده للعبادات اليهودية، فإنه جاء لتحقيق الوعود التى أعطيت لإسرائيل فى كتاب العهد القديم. وهنا يطرح المؤلف جون ديكسون سؤالا:

هل لهذه الكتابات الغنوصية فائدة تذكر للمؤرخ الحديث ؟

ويجيب : نعم، لأن هذه الوثائق تكشف لنا شيئا عن أراء بعض الجماعات المسيحية التى عاشت فى القرنين الثانى والثالث للميلاد. فالمؤرخون يدرسون هذه النصوص ليكتسبوا رؤية أوسع عما نسميه " المسيحية الأولى " لكن لأن هذه الكتب قد تم تأليفها فى زمن متأخر جدا، ولأن تعاليمها لا تجد ما يؤيدها فى أى وثائق أخرى، فإن التيار الرئيسى للباحثين يعتقد أن هذه الأناجيل الغنوصية عديمة الفائدة فى عملية البحث عن شخصية يسوع المسيح التاريخية.

ثم يضيف الكاتب وفيما يختص بحياة المسيح فإن نصوص إنجيل العهد الجديد لا زالت فى موقع الصدارة بالنسبة للبحوث التاريخية. فهى الكتابات الأكثر ثراء والأوفر غزارة فى المعلومات وكذلك الأكثر مصداقية. على الجانب الآخر، فإن الأناجيل الغنوصية مثيرة للدهشة دون فائدة فعلية فى عملية البحث عن الرجل الذى عاش قبل ذلك بقرن أو قرنين من الزمان .

المسيح فى الكتابات الوثنية القديمة

٢ ـ كان شخصا مثيرا للقلاقل

حوالى ١٧٥م كتب أحد المفكرين الوثنيين واسمه **سيلسوس Celsus** كتابا بعنوان "العقيدة الصحيحة" يهاجم فيه المسيحية، ويفسر المعجزات التى قام بها المسيح بأنها مجرد أعمال سحرية من أسحار المصريين. فقال :

"بعد أن وضع يسوع يده على هذه القوى السحرية بصفة خاصة، رجع من هناك (من مصر) وبناء على هذه القوات أطلق على نفسه لقب إله" (هذا الكتاب اقتبسه أوريجين فى القرن الثالث فى كتابه: ضد سيلسوس Against Celsus). ولكونه كتب فى أواخر القرن الثانى فمن الصعب إعطاء أى قيمة لعبارات سيلسوس، فكتاباته تتشابه كثيراً مع مجادلات اليهود المبكرة ضد المسيحية، وربما استقاها من هذا المصدر. ورغم ذلك، فإن تعليقاته تعطى فكرة جيدة عن الكيفية التى كان ينظر بها المفكرون الإغريق إلى الأخبار المنتشرة حول شخصية المسيح. ومن هذا يستنتج جون ديكسون مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا أن أحدا لم يشك فى وجود شخصية يسوع المسيح قط لكن الكثير منهم كان يعتبره ساحرا أو دجالا .

لوقاينوس السومسطائى LUCIAN OF SAMOSATA (١١٥-٢٠٠ م)

كان لوقيانوس أحد الكتاب الإغريق وكان مشهورا بكتاباته الساخرة. فى كتابه "موت بريجرينوس The Death of Peregrinus " يتهكم فيه على أحد الدجالين واسمه بريجرينوس يتجول بين المسيحيين الفلسطينيين. وهو يشير إلى مؤسس المسيحية فيقول:

" إنه الشخص الذى مازال الناس يعبدونه حتى اليوم. إنه الفلسطينى الذى صلب لأنه جاء بهذه الديانة الجديدة إلى العالم، ... فوق ذلك، فإنه أول من أعطاهم الشريعة first lawgiver وأقنعهم أنه بمجرد أن يتنكروا للألهة اليونانية ويبدأوا فى عبادة ذلك السوفسطائى المصلوب ويعيشون حسب مبادئه يصيرون أخوة بعضهم لبعض.

سيتونيوس SEUTONIUS

مؤرخ رومانى إسمه جايوس سيتونويس ترانكيلوس، مؤلف كتاب "حياة القياصرة " (١٢٠م). يقول فى كتابه" حياة كلوديوس " إن كلوديوس طرد اليهود من روما (٤٩ م) بسبب الشغب الذى كانوا يحدثونه بتحريض من Chrestus . ويتفق معظم المؤرخين ودارسو انجيل العهد الجديد أن سيتونويس خلط بين عبد إسمه كريستوس وبين لقب "المسيح" الذى يطلقه اليهود عليه (والذى يعنى الشخص الممسوح) وربما كان النص يشير إلى

الإضطرابات التى كانت تقع من اليهود الرومان، وكان منهم ألاف الذين يعلنون أن المسيح هو المسيا اليهودى.

وقد شهدت بعض المدن الأخرى اضطرابات مشابهة. فطرد كلوديوس اليهود من روما. وذكر ذلك مصادفة أيضا فى أقدم النصوص المسيحية مثل أعمال الرسل حيث نقرأ:

" هناك تقابل (بولس الرسول) مع يهودى إسمه أكويللا، من مواطنى بونط، جاء حديثا من إيطاليا مع زوجته بريسيللا، لأن كلوديوس أمر كل اليهود بأن يتركوا روما . (أعمال الرسل ١٨:٢)

تاسيتوس Tacitus : (٣٦-١٢٠) هو كورنيليوس تاسيتوس، أعظم مؤرخى روما القديمة وخطيبها المفوه، والموظف العمومى صاحب المكانة الرفيعة. إن معظم ما نقرأه عن أباطرة الرومان يأتى من كتابيه "التاريخ"، و"الحوليات". وفى كتابه الحوليات يذكر تاسيتوس موت المسيح وإزدهار حركة دينية بإسمه.

ونص تاسيتوس ساخر، معادى للمسيحية فى أسلوبه. حيث يقول:

المسيحيون يستمدون إسمهم من رجل إسمه المسيح، هذا الرجل الذى تم إعدامه فى عهد الإمبراطور تيباريوس بناء على حكم أصدره الحاكم الرومانى بيلاطس البنطى، وهكذا تم قمع الفتنة القاتلة إلى حين، لكنها لم تلبث أن

انطلقت من جديد ليس فى اليهودية فقط ، المصدر الأول للشر كله، بل تعدتها إلى مدينة روما ذاتها، حيث تجمعت كل الأفعال الخبيثة والفاضحة من كل أجزاء العالم وصارت متفشية .

لم يكن تاسيتوس معجبا بالمسيحية، لكن ازدراءه لهذه الحركة الدينية، لم يمنعه من سرد بعض التفاصيل الهامة عن مؤسسها : متى وأين عاش يسوع المسيح، لقبه وملابسات قتله. وأهم ما يستوقفنا هنا هو إثباته لواقعة صلب المسيح فى فلسطين على يد بيلاطس البنطى .

بلينى الصغير، وهذا اختصار لاسمه، (٦١-١١٣م) أحد المعاصرين لتاسيتوس والحاكم الرومانى الثرى لمنطقة بيثينيا بجنوب تركيا، كتب كثيرا من الخطابات ذات الطبيعة الرسمية وشبه الرسمية، ثم نشرها فى سلسلة من المجلدات.

فى سنة ١١٠ كتب يطلب من الإمبراطور تراجان نصيحته فى كيفية التعامل مع طائفة المسيحيين الجديدة (الكتاب العاشر، خطاب رقم ٩٦) يسأل على وجه الخصوص، إذا كان يجب عليه أن يستمر فى إعدام الذين يعبدون يسوع المسيح. وبناء على مقابلاته بالمسيحيين الأوائل كتب يقول:

"إن كل خطيئتهم أو خطأهم لا يزيد عن الآتى؛ إنهم يلتقون فى فجر يوم محدد ويغنون فى تبادل الأصوات بين مجموعتين ترنيمة للمسيح باعتباره إله،

ويقسمون فيما بينهم ألا يرتكبوا أى جريمة كجرائم السرقة والنهب أو الزنا، وألا يخلفوا عهدا."

هذا النص مهم بصفة أساسية فى تأكيده لنوعية الحياة المسيحية فى الكنيسة الأولى .

المسيح فى الكتابات اليهودية القديمة

٣ ـ ساحر ومخادع

كان المسيح يهوديا – ولد يهوديا، ونشأ يهوديا، وحضر اجتماعات المحفل اليهودى، ومارس العبادة فى المعبد ليهودى، وكون فريقا ممن يتبعون العقيدة اليهودية وهو يعتقد أنه بهذا إنما يكمل كل شىء ذكرته الكتب اليهودية المقدسة عن مجىء المسيا، المسيح.

فكيف كان رد فعل اليهود تجاه المسيح؟ إنه سؤال معقد. لنتذكر أن المؤمنين الأوائل كانوا كلهم يهودا (الذى تصادف أنهم اعتقدوا أن المسيا الذى كانوا ينتطرونه قد جاء) . فالقديس بولس مثلا، الذى تشكل رسائله جزءا كبيرا من العهد الجديد، كان فريسيا (يهودى ذو مكانة رفيعة) ، وهو الذى أعلن أنه رأى المسيح خارجا حيا من القبر. فكتابات بولس تقدم لنا نمطا من أنماط الاستجابة اليهودية للمسيح، وهى استجابة طيبة. فالأناجيل– التى تحتوى بيوجرافيا العهد الجديد حول المسيح – من الواضح أنها يهودية. مادتها أتية من اليهود الذين إتبعوا المسيح.

وهنا يلاحظ الكاتب أن أعنف الانتقادات ضد المسيح لم تأت من الوثنيين الذين رأوا المسيح اساسا كانسان غير عادى – وإنما جاءت من أبناء وطنه.

التلمود والتشريعات اليهودية تؤكد محاكمتهم وصلبهم للمسيح .

التلمود هو شرح قديم للشريعة اليهودية. فى أحد أقسام التلمود المعروف باسم (باريزا سانهدرين)baraitha Sanhedrin ٤٣ a–b (١٠٠–٢٠٠ م) نجد تقريرا بعنوان " جرائم يسوع المسيح، محاكمته وإعدامه ":

فى عشية عيد الفصح تم صلب يسوع (على صليب) وقبل تنفيذ الإعدام بأربعين يوما خرج منادي وصاح فى الناس، "إنه سوف يرجم لأنه مارس السحر والخداع وساق اسرائيل إلى طريق الضلال. وأى إنسان يمكنه أن يقول شيئا لصالحه، فليتقدم للدفاع عنه" ونتيجة لأنه لم يتم تقديم شىء لصالحه تم صلبه فى عشية عيد الفصح .

على أى حال، ففى هذه الفقرة نجد كثيرا من التفاصيل التى تتفق مع معرفتنا الأولية بيسوع المسيح، شهرته الواسعة كصانع معجزات وعجائب (" ساحر") وطريقة وتوقيت إعدامه (صلبه مع اقتراب عيد الفصح) والنص يوضح إنه السنهدرين اليهودى (المجلس الحاكم فى أورشليم) هو الذى أصدر الحكم بموت المسيح (باريزا سنهدرين). والأناجيل المسيحية تقول نفس الشىء، مضيفة أن السلطات الرومانية أيضا كان لها دور حاسم .

جوزيفوس (٣٧–١٠٠م) يعترف بصلب المسيح

فلافيوس جوزيفوس أريستوقراطى يهودى عاش فى القرن الأول الميلادى (٣٧ – ١٠٠م) وفى كتابه الضخم المسمى " التراث اليهودى " أو Jewish

Antiquities يعرض لنا سجل التاريخ الكامل للشعب اليهودى حتى يومه. وفى مناقشته لبعض الاضطرابات اليهودية خلال فترة حكم بيلاطس البنطى، يقدم جوزيفوس تعليقا مختصرا عن معاملة بيلاطس لمعلم يهودى محدد اسمه يسوع حيث يقول:

فى هذا الوقت ظهر يسوع رجلا حكيما. لأنه كان يقوم بأعمال مدهشة. كان يعلم الناس الذين كانوا يتقبلون الحقيقة بفرح. وقد اكتسب أتباعا كثيرين من اليهود وكثيرين من ذوى الأصول الإغريقية. وعندما قام بيلاطس، بسبب اتهام قدمه قادة شعبنا، بصلبه، فإن الذين سبق وأحبوه لم يتوقفواعن ذلك أبدا، لأنهم أعلنوا أنه قد ظهر لهم حيا بعد الصلب بثلاثة أيام. وحتى يومنا هذا فإن قبيلة المسيحيين التى سميت على أسمه لم تختف من الوجود ومازالت باقية .

ويستخلص الباحث من هذه المصادر اليونانية والرومانية واليهودية عدة حقائق حول شخصية المسيح مثل:

- الإسم "**يسوع**"

- الإطار المكانى والزمانى لخدمته العامة (**فلسطين خلال حكم بيلاطس البنطى، من سنة ٢٦ حتى ٣٦ ميلادية**).

-إسم أمه **(مارى)**

- ميلاده الغامض.

-إسم أحد أخوته (جيمس)

- شهرته (معلم)

- شهرته كصانع معجزات / أو ساحر.

- نسبة لقب " **المسيح / المسيا.إليه**"

- وضعه "**الملكى**" فى عيون بعض الناس.

- زمن وأسلوب إعدامه (الصلب قرب الاحتفال بعيد الفصح)

- اشتراك قادة اليهود والرومان فى جريمة قتله.

- تصادف حدوث كسوف للشمس فى ساعة صلبه .

- إعلان ظهور يسوع المسيح لأتباعه بعد موته .

- ازدهار حركة عبادة يسوع المسيح بعد موته .

من الواضح أننا لا نجد فى هذه الكتابات شيئا عما كان يمثله يسوع المسيح، ما الذى كان يتوقعه من جانب أتباعه، وما الذى دفعه إلى طريق الشهادة. وفى سبيل الوصول الى هذه التفاصيل لابد لنا من الرجوع إلى أقدم وأهم المصادر المباشرة لمعرفة يسوع المسيح – فى كتاب العهد الجديد.

٤ ـ إنجيل العهد الجديد

ان الطبيعة الدينية – التى تطلق على الكتابات المسيحية– لا تقلل من قيمتها كمصادر تاريخية ، فالباحثون المحترفون ينظرون إلى العهد الجديد على أساس أنه نص من القرن الأول الميلادى، ولا ينظرون إليه على أساس أنه كلمة الله، كما تفعل الكنائس المسيحية. لكنهم يضعونه موضع النص التاريخى ذى القيمة العالية. ودون مبالغة نقول إن المؤرخين (بصرف النظر عن قناعاتهم) عموما يعتبرون كتابات العهد الجديد على أساس أنها أقدم المصادر، وأكثرها ثراء، وأكثرها مصداقية من حيث المعلومات الخاصة بشخصية المسيح تاريخيا.

العهد الجديد كمجموعة مصادر

العهد الجديد ليس مصدراً مفرداً، بل هو مجموعة مصادر. ففى المنهج المعروف بعلم اللاهوت، يتم النظر فى الإنجيل كمصدر وحيد متجانس– أتيا كله من الله. لكن فى البحوث التاريخية يتم تحليل العهد الجديد على أنه تجميع لتقاليد مستقلة عن بعضها تتسم بمعتقدات مشتركة حول شخصية يسوع الناصرى. والمسيحيون لابد أن يتذكروأ أنه، رغم أن وثائقنا المقدسة كتبت واننشرت فى القرن الأول الميلادى، فإنها لم تجمع فى مجلد واحد إلا فى القرن الثالث او الرابع الميلادى.

كيف وبواسطة من تم الاتفاق على الصيغة النهائية لهذا التجميع؟ مع زيادة النمو فى حجم الأدب المسيحى، قررت كنائس الشرق الأوسط جميعها أن تجتمع للمناقشة والبحث لتحديد النصوص الموثقة بصورة عامة والتى تعتبر مقدسة. تمت الدعوة لسلسلة من المجامع، بلغت قمتها فى مجمع روما (٣٦٢م) ومجمع قرطاجة فى شمال أفريقيا (٣٩٧). وكانت سياسة هذه المجامع شديدة المحافظة. وقررت أن تقبل بصفة أساسية تلك الوثائق التى تم الاعتراف بها فى الكنائس على أنها كتابات مقدسة، والتى كتبت بيد الجيل الأول، أى رسل المسيحية، أى بواسطة أولئك التلاميذ الذين عينهم السيد المسيح (مثل بطرس، وبولس، ويعقوب ..إلخ) او بواسطة زملائهم المباشرين (مرقس، لوقا، إلخ) هكذا، نجد أن هذه المجامع قد اختارت ولم تجمع، وكانت حصيلة اختياراتها هى السبع والعشرين كتابا التى تكون إنجيل العهد الجديد. النقطة المهمة أن كتاب العهد الجديد ليس وثيقة وحيدة وإنما هو تجميعا لعدد من النصوص كتبت وتنقلت أو وزعت circulatd منفصلة عن بعضها خلال القرن الأول الميلادى، وهذا امر فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية. فالرسول بولس الذى كتب العديد من نصوص العهد الجديد مثلا لم يكن يعلم شيئا عن انجيل مرقس. وكذلك مرقس لم يكن يعرف شيئا عن رسائل بولس. لذلك فإن المؤرخين يتعاملون مع رسائله على انها مصدر منفصل عما كتبه مرقس. أيضا إنجيل يوحنا كتب منفصلا عن انجيل متى، ولهذا فإن هذه الأناجيل المستقلة تمثل مجموعة أخرى من المصادر المستقلة .

والمؤرخون يرون فى هذا أمرا مهما، فحقيقة أن بولس ومرقس، ومتى ويوحنا كتبوا باستقلال تام بعضهم عن بعض يجعل التشابه الصارخ فى أقوالهم عن حياة المسيح وتعاليمه شيئا بالغ الأهمية. لأننا نعلم أنهم لم ينقلوا بعضهم عن بعض، فعلينا أن نفترض أن معارفهم كانت مبكرة وكانت معروفة على نطاق واسع. وهذا كما يقول المؤلف هو معيار تعدد الشهادات وهذا فى رأيى تأكيد لمصداقية العهد الجديد .

الفصل الثانى

الحوار الدينى

١ـ العقيد القذافى والهجوم على المسيحية:

الحوار الدينى قديم قدم الآديان وقد ساهم هذا الحوار فى توضيح كثير من المفاهيم والتقريب بين المؤمنين بالإسلام والمؤمنين بالمسيحية بصفة خاصة. وقد نشط هذا الحوار فى عصر الدولة العباسية وبلغ ذروته فى عهد المأمون فى جو الانفتاح الفكرى السائد آنذاك. وقد جرت أول محاورة بين الخليفة المهدى وبين طيماثاوس الأول الذى يصفه الأب لويس شيخو بأنه اعظم جثالقة الكلدان النساطرة، الذى دبر ملته مدة ٤٣ عاما، فى أيام الخلفاء المهدى ثم الهادى ثم الرشيد إلى أيام المأمون وتوفى سنة٨٢٣ م، وله عدة أثار باللغة الكلدانية.

والخليفة المهدى هو ثالث خلفاء الدولة العباسية الذى تولى الحكم فى بغداد بعد المنصور من(١٥٨ إلى ١٦٩) هـ (٧٧٥-٧٨٥) م وحواره

مع هذا الأسقف حوار عميق وشامل مما يدل على سعة أفق الخليفة وعمـق ثقافتـه وعلمه كما أنه يتسم بالرقى فى لغة الحديث وأسلوب التخاطب.

+ وطنى، ٩ مايو ٢٠٠٧

وليت من يتصدون لهذه الأمور الأن ان يعودوا لمثل هذه الحوارات ويقرأونها حتى يتعلموا من هذه التجارب كيف يكون الحوار بين المختلفين. وفى كتابى "حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية" المنشور فى المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٦)، عرضت لبعض هذه الحوارات لعل القراء ينتفعون بها .

لقد قدمت هذه التجارب الكثيرة زخيرة ثرية فى تاريخ الحوار بين الأديان أو الأصح بين المتدينين، تهيب بنا أن نستأنف هذا الحوار ونواصله على أوسع نطاق دون حرج، حتى تزداد الأجيال معرفة بأصول الأديان وغاياتها السامية، بعيدا عن دعوات المتهوسين والجهلة وتجار الشعارات. وهذا أمر ضروري حتى نركز على الإيجابيات ونتجنب السلبيات.

وعلينا أن نفهم منذ البداية أن غاية الحوار المطلوب ليست إزالة الخلافات الموجودة في الكتب المقدسة أو تصفية بعض الأديان لصالح دين معين، فالحوار يقوم أساسا على الاعتراف بحق الآخر في الاختلاف والاحتفاظ بوجهة نظره المختلفة، وإنما البحث يكون في إزالة سوء الفهم والشك المتبادل بين أصحاب الأديان، وإيجاد السبل المشتركة للتعاون من أجل الخير المشترك الذي هو غاية الأديان جميعًا.

أقول هذا الكلام بمناسبة هجوم العقيد القذافى على المسيحية فى الخطاب الذى ألقاه فى النيجر وذكرته جريدة المصرى فى القاهرة، وقال فيه إن الاسلام ألغى المسيحية واليهودية ولم يعد هناك أديان أخرى بعد الاسلام.

وهذا كلام مضحك لسببين : **اولهما** ان أهل النيجر لا يهمهم هذا الكلام مطلقا. لأنه لايحل مشاكل الفقر والمجاعة والتخلف التى تعانيها هذه البلاد .

وثانيا لأن القذافى سبق له أن ردد أقوالا أخرى فى هذا الموضوع تتناقض مع هذا الكلام تناقضاً تاماً. وهذا ما نجده فى مداخلته فى مؤتمر الحوار المسيحى الاسلامى الذى عقد فى طرابلس بدعوة من العقيد القذافى نفسه وتحت رعايته عام ١٩٨١ ونشرت أبحاثه فى كتاب (ندوة الحوار بين الأديان) الذى أصدره مكتب الاتصال بالجماهيرية الليبية فى نفس العام .

في هذه المداخلة عبر العقيد القذافي في بساطة ووضوح عن جوانب الاتفاق والاختلاف بين الأديان فقال:

"أما بين مؤمن وآخر فليس هناك شيء اسمه جهاد.. إن الخطأ هنا في اعتقاد المسلمين وليس في القرآن.. والقرآن لا يوجد فيه إطلاقا شيء اسمه الجهاد ضد أهل الكتاب، وإنما القرآن يدعو إلى محاورة أهل الكتاب باعتبارهم وإيانا مؤمنين بالله ويجب محاورتهم بالحسنى.. ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ﴾.. و﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. إن القرآن يدعو المؤمنين به إلى استمرار الجدل والحوار مع أهل الكتاب الآخرين. والمقصود هنا النصارى واليهود.. كما أنه يقول إن النصارى هم أقرب إليكم من اليهود.. وهذه آية واضحة، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِيْنَ آمَنُوْا الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾.

"أما عن الجانب المسيحي فنحن لا نشك بما أنزله الله سبحانه وتعالى على عيسى بن مريم.. كما لا نشك إطلاقًا بما قاله عيسى نفسه، ولكن كما في الجانب الإسلامي حيث توجد أحاديث نبوية صحيحة وأخرى غير صحيحة، كذلك يوجد في الجانب المسيحي ما كتب بعد ذلك على لسان المسيح أو بعده، بعضه صحيح وبعضه الآخر مشكوك فيه." (ص ٧١).

ثم يصل إلى نقطة الخصام بين المسلمين والمسيحيين قائلا "إن هناك إنكارًا لنبوة محمد، وهذا جهل وخطأ وذنب كبير ينبغي أن يزول الآن بعد أن وصلت البشرية إلى هذا المستوى، وبعد أن استطعنا نحن المسلمين والمسيحيين أن نجلس جنبا إلى جنب ونتحاور" (ص ٧٥).

أما كيف يزول هذا الخطأ فإن العقيد القذافي طالب "بضرورة البحث عن النسخة الأصلية للتوراة والإنجيل حتى تنتهي المشكلات فيما بيننا".

هذا الكلام يحتوي على قدر كبير من حسن النية، لكنه يحمل تشكيكًا في صحة التوراة والإنجيل لا يقبله اليهود أو المسيحيون. ومع ذلك فالأجدى أن نناقشه بالعقل والمنطق في سياق هذا الحوار المطلوب ولنبدأ بالسؤال التالي:

أولا: أين توجد هذه النسخة الأصلية للتوراة والإنجيل؟ ومن يملك هذه النسخة المزعومة؟ ولماذا لم يطبعها وينشرها بين الناس؟

ثانيًا: أما القول بإعادة كتابة الإنجيل والتوراة لكي تتوافق مع ما يقوله القرآن حتى في هذه الجزئية بالذات فهو مطلب غير عملي ولا يقبله اليهود أو المسيحيون لأنهم يؤمنون إيمانا راسخًا بأن النصوص التي بين أيديهم نصوص صحيحة ومقدسة، ولا يملك أحد المساس بها.

لكن السؤال الآهم هو:

هل اتفاق النصوص ضرورى للحوار وتحقيق التفاهم بين أصحاب الأديان أو أصحاب المذاهب الدينية؟

إن اليهود لا يعترفون بالمسيح ولا بالمسيحية، والمسيحيون حسب الإنجيل يؤمنون بأن اليهودية انتهت باكتمال النبوات ومجيء المسيح . ومع ذلك فإن وجود هذه الخلافات الجذرية لم يمنع قيام التفاهم بين اليهود وبين المسيحيين في الغرب، بدرجة جعلت قيام التحالفات الاستراتيجية بينهم أمرا طبيعيا ومحمودا.

وهل اتفاق النصوص بين المتدينين يؤدي بالضرورة إلى الوفاق والتعاون ؟

إن المذاهب المسيحية العديدة وأهمها الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت يؤمنون جميعا بهذا الإنجيل الذي بين أيدينا ويقيمون معتقداتهم على أساسه. ورغم اتفاقهم على هذا النص الواحد الوحيد فإنهم لم يتفقوا على تفسير واحد،

وبقيت هذه المذاهب تتصارع وتتناحر مئات السنين حتى وصلوا أخيرا إلى الحوار وإلى التفاهم على أساس احترام كل طرف لعقيدة الآخر.

والمشكل نفسه قائم بين المسلمين أيضًا: بين الشيعة والسنة مثلا، فرغم أنهم يحتكمون إلى نص واحد هو القرآن، فلم يتفقوا على تفسير واحد في مسألة "النبوة بين محمد وعلى". والتى تشتعل حولها حروب الابادة فى العراق الأن .

إن فتح باب التشكيك فى الكتب المقدسة خطر لا يهدد اليهود والمسيحيين فقط، بل سوف يمتد إلى المسلمين أيضًا.

فها هو الدكتور عبد العزيز كامل يحذر من التورط فى هذا الاتجاه وهو يتحدث عن كتاب "تاريخية الفكر العربي الإسلامى" (منشورات مركز الإنماء القومي – بيروت ١٩٨٦) الذى أصدره المفكر الاسلامى الدكتور محمد أركون والذى يدعو فيه إلى إعادة توثيق القرآن .

يقول الدكتور عبد العزيز كامل فى كتابه " الاسلام والعروبة فى عالم متغير " (سلسلة كتاب العربى ، ١٩٨٩) ص ٢٩١ .

ثم لننظر ما يقوله (محمد أركون) عن القرآن وكيفية قراءته .

"راح الخليفة الثالث عثمان (أحد أعضاء العائلة المعادية لعائلة النبى) يتخذ قرارًا نهائيًا بتجميع مختلف الأجزاء المكتوبة سابقًا والشهادات الشفهية التى أمكن التقاطها من أفواه الصحابة الأول. أدى هذا التجميع عام ٦٥٦ م إلى

تشكيل نص متكامل فرض نهائيًا بصفته المصحف الحقيقى لكل كلام الله كما كان قد أوحى إلى محمد (صلى الله عليه وسلم). رفض الخلفاء اللاحقون كل الشهادات الأخرى التى تريد تأكيد نفسها (مصداقيتها) مما أدى إلى استحالة أى تعديل ممكن للنص المشكل فى ظل عثمان". (ص ٢٨٨)."

" ثم دعا (د. محمد أركون) إلى مراجعة نقدية للنص القرآنى وإعادة كتابة قصة تشكل هذا النص التى رسخها التراث المنقول بشكل جديد جذريًّا. هذا يتطلب منا الرجوع إلى كل الوثائق التاريخية التى أتيح لها أن تصلنا، سواء أكانت ذات أصل شيعى أم خارجى أم سنى. هكذا نتجنب كل حذف تيولوجى لطرف ضد آخر. المهم عندئذ هو التأكد من صحة الوثائق المستخدمة. بعدها نواجه ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق وإنما أيضًا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت التى اكتشفت أخيرًا" (ص ٢٩٠ و ٢٩١).

"أما عن النواحى التطبيقية فى الشريعة فقد ذكر عن القرآن والحديث النبوى والإجماع والقياس "أن هذه المبادئ الأربعة غير قابلة للتطبيق" (ص ٩٢٧) ونقد تطبيقها واحدًا بعد الآخر" (٢٩٧ و٢٩٨).

وهنا يتساءل عبد العزيز كامل: بناء للغد أم هدم للماضي ؟

ثم يجيب: "أراني في حدود المساحة المتاحة مضطرا إلى الوقوف، فهنا علمنة تراجع النص القرآني والحديث النبوي، والخلافة الراشدة، وأصول الفقه والتشريع وتصرح باستحالة التطبيق، وتضيق أو تتلاشى معها مساحة "المقدس".

ومن قبلها رأينا تجديدا، ومن قبله – ومعه – اجتهادا يدعو إليه الإسلام، كما رأينا التطور التاريخي للعلاقة بين الدين والدولة في العالمين الغربي والإسلامي، ورأينا الفجوة الحضارية التي علينا أن نعبرها، فهل يكون العبور بأن تتجه الجهود إلى بناء الغد ؟" أم إلى هدم الماضي والوصول بالمراجعة حتى إلى نص القرآن الكريم ليصنع "بعض علمائنا" نصًا قرآنيا جديدًا؟!"

ثم يضيف عبد العزيز كامل قائلا:

"من الممكن أن نستفيد من مناهج العلوم الحديثة، وهذا واجب ومسئولية، وأن نكون على صلة بها وحوار معها، ولكن هذا لا يعني – بحال – أن ندخل بكل مقدساتنا معامل هذه العلوم فكا وتركيبا، وأن نهدر جهود أجيال من العلماء، تعرضت أعمالهم للجرح والتعديل واستطاعت أن تؤكد مصداقيتها عبر الأجيال. وإذا كان كل جيل باسم "العلمنة " يبدأ بالشك وإعادة التقويم لكل ما سبق بذله من جهد، فمتى وكيف يكون البناء بناء الفرد والمجتمع والحضارة معا؟.

ولعلنا نصل إلى كلمة سواء تتجه بها الجهود إلى الإضافة، واستكمال ما نحتاج إليه في مجتمعاتنا المتخلفة، بدلا من هدم ما بقي لدينا من ركائز لم تكن في حياتنا إلا داعية إلى الخير والتقدم" .

انتهى كلام الدكتور عبد العزيز كامل، ونعود الآن إلى سؤال العقيد معمر القذافي الخاص بموقف المسيحيين من نبوءة محمد. وقد أجاب عليه الباحث الكاثوليكي ألان موريس يورمانس بقوله:

"المسيحيون والمسلمون من غير شك يختلفون في مقاييسهم للنظر في النبوة الكاملة النهائية، فيرى المسيحيون أن كمال النبوة قد تحقق في يسوع المسيح، غير أنهم يعتقدون أن روح النبوة لا يزال يظهر من جيل إلى جيل، أما المسلمون فيرون في محمد خاتم الأنبياء، وإن اعترفوا بأن حياة يسوع المسيح لها أبعاد خارقة للعادة تجعلها متصلة بالغيب. فالحوار الصحيح يقتضي هنا أن يحترم كل من الطرفين رأي الطرف الآخر في شموله وكماله، فيصبر صبرًا جميلا مستودعا لله التدخلات اللازمة حتى يتصفى هذا الرأي، فيستنير ويتكامل: كما لا يحق للمسيحي أن يطلب من المسلم أن يعترف للمسيح بجميع الأوصاف التي يتصف بها في المسيحية، كذلك ينبغى على المسلم فيما يخص محمدا ألا يطالب المسيحي بالاعتراف بجميع الأوصاف التي يتصف بها محمد في الإسلام.

أما الكتب المقدسة فيمكننا أن نأتي بنفس الملاحظة في شأنها، وإن علمنا جميعا أن المسلمين والمسيحيين يعتقدون أن كلام الله قد جاء وديعة عند الأنبياء. كنص منزل مسجل في كتب مقدسة يجب على كل مؤمن أن يقرأها ويتأملها فيفسرها؛ حتى يفهم من معانيها ما هو ظاهر وما هو باطن".

وواضح أن هذا الرد الذى قدمه الراهب الكاثوليكى ألان موريس يورمانس فى ندوة القذافى، يحمل في داخله الشروط الصالحة لاستمرار الحوار. على أي حال فكل التقارير المنشورة تدل على وجود ميل شديد أدى إلى عقد ندوات أخرى في مالطة وباليرمو واليونيسكو في باريس. إن توفر حسن النية بين البشر يستطيع أن يفعل المعجزات في مد جسور المحبة الإنسانية والأخوة بين البشر، وبها نواجه الإرهاب الذي يهدد بنشر الفوضى والخراب.

وهنا أود أن أسأل الذين يهاجمون المسيحية واليهودية بدعوى الدفاع عن الاسلام هذا السؤال:

هل يفهمون حقا أيات القرآن الكريم؟ لقد تناولت فى أبحاثى نماذجا عديدة من مزاعم هؤلاء أثبتت جهل البعض وسوء نية البعض الآخر. وهذا موضوع حديث آخر.

فى يوم الثلاثاء ١٠ رمضان ١٣٨٩ من وفاة الرسول الموافق ٢٢ يوليو ١٩٨٠ م– نشرت جريدة (الفجر الجديد) الليبية خطاب الإمام الخمينى بمناسبة

عيد ميلاد المهدى المنتظر، وأشارت الصحيفة بانها تنشر الترجمة التى قدمتها الإذاعة الإيرانية .

وعناوين الصحيفة تقدم تلخيصا وافيا لكل ما قاله الخمينى، وأنا أنقله هنا لكى يرى الجميع مسلمون ومسيحيون هذه المفارقات العجيبة ويتأملوها .

قال الخمينى :

ميلاد المهدى أعظم من ميلاد الرسول. غيبة صاحب الزمان أرواحنا فداء له– قضية مهمة. أطال الله فى عمرنا حتى نستعد لاستقباله ونوفق بزيارته.

فشل الأنبياء جميعا حتى الرسول فى تحقيق العدالة وسيوفق المهدى الموعود بتحقيقها.

عيد ميلاد صاحب الزمان – أرواحنا فداء له – هو من أكبر أعياد المسلمين ستخرج البشرية من أغلالها وانحطاطها عندما يظهر المهدى عجل الله تعالى ظهوره .

علينا أن نهىء أنفسنا لقدوم المهدى الذى لا نستطيع أن نطلق عليه لقب زعيم أو قائد لأن اسمه أكبر وأجل. لا نستطيع أن نصفه بأنه الشخصية الأولى لأنه لاتوجد شخصية ثانية بعده.

هذه مفارقات صارخة تتطلب منا صحوة العقل والضمير والنظر فيما يحققه الآخرون من منجزات العلم والمدنية حتى نقيس عليه، ونختار لأنفسنا الطريق السديد للعدل وللحرية وللتقدم .

****

٢ ـ هل القرآن ينكر حقيقة الصلب

تعرضت فى مقالى الأول لأفكار العقيد القذافى وإدعائه بأن الإسلام قد أبطل الأديان السماوية الأخرى كاليهودية والمسيحية، وكشفت عن تناقضاته الواضحة بخصوص هذا الموضوع وختمت كلامى بالقول ليتهم يفهمون القرآن قبل أن يتكلموا فى هذه الأمور.

لكن القذافى لم يكن أول المرددين لمثل هذه الأقوال الخاطئة، ولن يكون آخرهم، وسأكتفى هنا بمثل يغنى عن الجميع هو الشيخ **محمود شاكر** (رحمة الله عليه) الذى صادقته وأحببته كثيرا بقدر اختلافى معه. وناقشت أفكاره فى كتابين لى هما "**لويس عوض ومعاركه الأدبية**" ثم كتاب "**صدام الأصالة والمعاصرة**" ، وذلك لأن شاكر حاول أن يدعم رأيه بتفسير خاص لبعض آيات القرآن يبتعد كثيرا عن مضمونها الحقيقى.

قال شكر إن المسيحية واليهودية ليست أديانا وانما هى ملة واحدة فى الكفر. وجاء هذا الكلام فى سياق حملة غاضبة شنها شاكر على لويس عوض لإخراجه من جريدة الأهرام وضرب تيار الحداثة كله فى الفكر والأدب ضربة قاضية إلا أن جنوحه على هذا النحو أدى الى اعتقاله سنة ١٩٦٥، ومصادرة مجلتى "الرسالة" و"الثقافة" التى كانت تنشر كتاباته وكتابات أتباعه تجنبا للفتنة الطائفية .

وقد تزامن هذا مع حملة القبض على أعضاء جماعة الأخوان المسلمين بعد اكتشاف المؤامرة التى دبرها سيد قطب وتنظيمه الحركى. ورغم أن شاكر قد رفض منهج الإخوان المسلمين فى استخدام العنف لنشر دعوتهم، ودخل مع سيد قطب فى معركة حامية إلا أنه أصولى، بل لا أبالغ إن قلت إنه شيخ الأصوليين المعاصرين من حيث رفضه لكل ثقافة مغايرة للاسلام.

بدأت هذه المعركة بسبب بحث نشره لويس عوض فى الأهرام بعنوان "على هامش الغفران" وقال فيه بأن أبا العلاء المعرى قد تأثر بالفكر اليونانى وأن انحيازه للفكر العقلانى كان نتيجة لدراسته للفلسفة اليونانية، "وأن رسالة الغفران" للمعرى تتشابه فى كثير من جوانبها مع مسرحية "الضفادع" لأريسطو فانيس. رأى شاكر أن هذا الكلام يتضمن تشكيكا فى أصالة المعرى، بل وأصالة الثقافة العربية عموما، فاتهم لويس عوض بالكيد للعروبة والاسلام والتعصب للفرعونية وللثقافة الغربية .

واستاء الدكتور مندور من اتهامات شاكر فكتب بمجلة "روز اليوسف" (في ١١ يناير سنة ١٩٦٥) مقالا بعنوان "معاركنا الأدبية"، أعرب فيه عن خيبة أمله "لانحراف الجدل فى تلك المناقشة عن الموضوعية المثمرة إلى التجريح

جريدة وطنى فى ١٦ مايو ٢٠٠٧.

الشخصي العقيم، وتبادل التهم القومية والسياسية غير الصحيحة وغير الشريفة" واعتبر ذلك نكسة مؤسفة لأدب الحوار.

ثم انتقل الدكتور مندور إلى التهم الأخطر فقال:

"وأكثر خطرا وضررا من تهمة الخروج على القومية العربية ممثلة في الإطار التقليدي للقصيدة العربية، تهمة الخروج على الإسلام بدعوى أن هذا الشعر الجديد يستخدم أحيانًا ألفاظًا كثيرة التردد في دين كريم يعترف به الدين الإسلامي فهذه تهمة حمقاء. ونحن المسلمين نعتبر جميع الأديان السماوية جزءا من تراثنا الروحي، بل جزءًا من التراث الروحي للبشرية جمعاء. ونحن حتى لو افترضنا العكس لما جاز مثل هذا التخبط في الاتهام، مراعاة لمشاعر إخواننا في الوطن الذين شاركونا دائما أفراحنا وأحزاننا ومعاركنا الوطنية الكبرى ضد الاستعمار والرجعية والإقطاع والرأسمالية الجشعة، وهم إخواننا وأشقاؤنا الأعزاء الأقباط". ثم أضاف مندور:

"إنني قد استأت أكبر الاستياء من جنوح هذا الزميل الأخير بعد ذلك بهذه المناقشة نحو التجريح الشخصي، بل محاولة إثارة فتنة قومية ودينية أخرى".

استنكر شاكر كلام الدكتور مندور، ورد عليه قائلا : " فقول الدكتور مندور أننا نحن المسلمين نعتبر جميع الديانات السماوية جزءا من تراثنا الروحي، بل جزءا من التراث الروحي للبشرية جمعاء، قول لا يقوم على ساق صحيحة أو

ساق عرجاء.. لأن كل ديانة من هذه الديانات الثلاث عقيدة شاملة منتزعة من كتابها كما هو عندها، وكما تفسره. وكل عقيدة منها تنقض كثيرا من عقائد الديانتين الأخريين، فغير معقول بوجه من الوجوه أن تعد شيئًا مما تنقضه جزءا من تراثها الروحي، إلا إذا كان معنى "التراث الروحي" متسعا للتناقض الذي لا يقبله عقل عاقل !!".

وهذا التفسير الذي يقدمه شاكر مليء بالتشدد والتزمت يبالغ في تصوير الفروق أو الاختلافات بين الأديان بحيث يرى فيها تناقضا شديدًا أو نقضا لبعضها البعض، وهذا التفسير المتشدد لا يقبله ولا يرضى عنه إلا المتعصبون من أهل هذا الدين، أو ذاك الذين لا يرون في دينهم إلا وسيلة للمفاخرة والمباهاة، أو تبريرا للتعالي والاستعلاء على بقية البشر كما تفعل الصهيونية العنصرية بأسطورة الشعب المختار مثلا.. وإذا رجعنا إلى منهج الأديان السماوية الثلاثة وفي نصوص الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن نجد أن فكرة التكامل هي السائدة، فالمسيح يقول: "ما جئت لأنقض بل لأكمل"، ويشير القرآن إلى النبي محمد بأنه خاتم النبيين، وأمره هو وأمته أن يؤمنوا بما أنزل الله على كل الرسل السابقين قال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوْبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوْتِيَ مُوْسَىٰ وَعِيْسَىٰ وَالنَّبِيُّوْنَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ [1].

١- سورة ال عمران .

وهكذا يتبين لنا أن منهج الرسالات السماوية. حسب هذه الكتب المقدسة يتجه إلى التكامل لا إلى التناقض، وذلك لأن غايتها واحدة وهي الإنسان.

إن شاكر يتكئ على فكرة التناقض وهو يحاول أن يجد لها سندا من الكتب المقدسة ليقول إن ألفاظا مثل "**الخطيئة**" و"**الفداء**" و"**الصلب**" ثم "**الخلاص**" لا تحمل أي معنى بالنسبة إلى المسلم، لأنه يرى أنها جزء من قاموس العقيدة المسيحية التي تقوم على الإيمان بالفداء والصلب والخلاص مقصورة عليها وعلى المؤمنين بها، وهو بهذا يحاول أن يجرد هذه الألفاظ من أي مدلول إنساني عام. وبالتالي يرفض استخدام هذه المصطلحات في الشعر الحديث ويقول:

لماذا كان "**الصلب**" رمزًا للتضحية، ولم يكن القتل، ولا الشنق ولا المثلة ولا "الخازوق"، ما دام الأمر يتعلق باللفظ دون دلالته المرتبطة بمصلوب بعينه أو مقتول أو مشنوق أو ممثل به أو مخوزق!!" [1] .

فشاكر يخاصم ألفاظ "الخطيئة" و"الفداء" و "الصلب" و"الخلاص" لمجرد أنها تنتمي إلى العقيدة المسيحية ليس إلا، ثم يدعو الشعراء إلى استعمال ألفاظٍ أخرى، مثل: القتل والشنق والمثلة و"الخازوق" والمخوزق بدلا منها.

ولحسن الحظ أن أحدًا من شعرائنا المرموقين لم يقع في هذه الغلطة الشنيعة، وأثبتوا جميعًا أنهم يتمتعون بسلامة الفطرة ورهافة المشاعر ونبل

١- اباطيل واسمار ص ٢١٦ .

القصد بدرجة تجعلهم يستلهمون مصادر السمو والعظمة الإنسانية في هذه الرموز الخالدة. إن اختيار الشعراء يعد في نظري حسما لهذا الجدل العقيم.

وارتباط هذه الألفاظ بالعقيدة المسيحية التي تؤمن بالصلب والفداء، قد أضفى على هذه الألفاظ سحرا وجمالا وربطها بأعظم وأصدق نماذج الفداء والتضحية وهو المسيح. ومع ذلك، فإن ذاكرة التاريخ لا زالت تحتفظ لهذه الألفاظ بصور ورموز كانت محورًا لفلسفات عظيمة تمجد قيم الحب والخير والجمال. وإذا أخذنا "الصليب" مثلا فسوف نجد له صورا واستخدامات عديدة مهمة.

ومن المدهش حقا، أن "الصليب" كانت له في حضارتنا المصرية القديمة مكانة مهمة؛ إذ كان رمزًا لمفتاح الحياة، وفي الحضارة اليونانية والرومانية كان موت الصليب هو أقسى عقوبة للمعارضين والمتمردين. وقد صلب اسبارتاكوس خارج أبواب روما ومعه كثيرون من الثائرين لأنه قاد ثورة العبيد ضد الإمبراطورية سنة ٧٣ ق.م، وحتى صلب المسيح كان الصليب علامة الذل والعار، وكان حمل الصليب يعني حمل الإهانة، لكن بعد أن صلب المسيح صار أتباعه يفخرون بالصليب [١].

وبعيدا عن الشعر، نجد أن حادث الصلب ذاته كان مصدر إلهام كبير لواحدة من أهم الروايات في أدبنا الحديث، وهي قصة "قرية ظالمة" التي ألفها

١- قاموس الكتاب المقدس ص ٥٤٥ .

الطبيب العالم والمفكر الكبير الدكتور محمد كامل حسين، وحاز عليها جائزة الدولة سنة ١٩٥٧.

وقصة "قرية ظالمة" تمثل محاولة جادة لدراسة أزمة الضمير الإنسانى. وفى سبيل الكشف عن جذور هذه الأزمة وتوضيح أبعادها الحقيقية يعود بنا المؤلف قرابة ألفى عام الى الوراء، ليحلل لنا أحداث ذلك اليوم المشهود "حين أجمع بنو اسرائيل أمرهم على أن يطلبوا الى الرومان صلب المسيح ليقضوا على دعوته، وما كانت دعوته إلا أن يحتكم الناس الى ضمائرهم فى كل ما يفعلون وما يفكرون فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم إلأ أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو على أوامر الضمير. وفى هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى" (قرية ظالمة ص ٢)

لقد كان اليهود أهل دين وكان الرومان أهل مدنية وقانون ولم يحل ذلك كله دون ارتكابهم للجريمة لأنهم تصوروا أن الدين والقانون يعلوان على أوامر الضمير، ومن هنا كانت خطيئتهم ومأساتهم ومأساة الانسانية عموما حتى اليوم. وكما يقول المؤلف "فالناس أبدا معاصرون لذلك اليوم المشهود وهم أبدا معرضون لما وقع لأهل أورشليم حينذاك من إثم وضلال وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم أن لايتخطوا حدود الضمير"

ولا شك أن المؤلف قد أختار أسلوبًا ملائمًا لموضوعه فسرد الأحداث عن طريق الأشخاص من زوايا مختلفة يعد أكثر تأثيرًا، وأقدر على إبراز وجهات

النظر المختلفة فنحن لا نرى واقعة الصلب رغم أنها الحدث الرئيسي للقصة. وإنما نسمع عنها في حديث الفيلسوف اليوناني الملحد مع الحكيم الماجي الذي رأى نجم المسيح يوم مولده وآمن به منذ ذلك الحين وهو هنا كثيرًا ما يبرز وجهة نظر المؤلف (ص ٢٣٤ – ٢٣٥).

يقول الفيلسوف المادي الذي يرفض التسليم، إلا بما يقبله العقل: "إني ما زلت أبعد ما أكون عن فهم حقيقة ما حدث أمامنا اليوم".

ويفسّر الحكيم الماجي أحداث اليوم قائلا:

"إن الله رافع السيد المسيح إليه فهو نور الله في الأرض فلما أبى أهل أورشليم إلا أن يطفئوه أظلمت عليهم الدنيا وهذا الظلام آية من عند الله تدل على أنه حرمهم من نور الإيمان وهُدَى الضمير".

وهكذا تنتهي وقائع الصلب إلى هذه النتيجة؛ ذلك لأن "رافع" حال يحتمل التنبؤ بما سوف يحدث، ويكون حديث الماجي والفيلسوف إما قبيل الصلب أو بعده أو إبانه... وفي هذه الحالة يحقق كامل حسين المواءمة بين آية "ما قتلوه وما صلبوه" وبين "واقعة الصلب"، ويكون "رفع" السيد المسيح قد حدث بعد الدفن وقيامه من القبر... وهذا أقرب إلى معنى الآية الكريمة "يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ" ثم يشير المؤلف بعد ذلك إلى عودة المسيح شخصيًّا بعد ثلاثة أيام ليأمر تلاميذه أو حواريه بنشر الإنجيل في ربوع العالم .

وفي مقدمة الترجمة الإنجليزية لهذه القصة يعلق مستر كينيث كراج على أزمة أورشليم، فيشير إلى أن صيحة الجماهير لبيلاطس التي وردت في الإنجيل "خذ هذا الرجل" تحولت من الفرد إلى المجموع، فأصبحت تعني: "خذ هؤلاء الرجال" أصبح الرجل أزمة المجموع وأصبح المغزى الأخلاقي للمشهد حكمًا بواسطة الإنسانية وللإنسانية".

وسحر هذا الكتاب أنه يتخذ هذا الموضوع محورًا له يستكشفه بحساسية مرهفة ويقدمه، وربما لأول مرة عن طريق مفكر ينتمي للعقيدة الإسلامية. فالفكر الإسلامي يميل إلى رفض صلب المسيح، والمسيحيون يحاولون – منذ قرون – إثبات الصلب عن طريق الأسانيد التاريخية، وكتدعيم للعقيدة الدينية التي تؤمن بالصلب كطريق للفداء، وكان من نتيجة هذا الجدل أن غمض على الجميع تقريبا المغزى الإنساني لهذا الحادث. وهذا ما يبرزه الدكتور محمد كامل حسين من خلال هذه القصة، فهو يقدم تحليلا نافذا لإرادة اليهود على صلب المسيح.

ويجدر بنا الآن أن نستعوض الآراء التي تعرضت لموضوع الصلب، ونحلل أبعادها لنعرف إلى أي حد وصل المؤلف في مناقشة هذه القضية، ولعل أهم هذه الأقوال هو ما جاء بالقرآن الكريم في الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وهذه الآية الكريمة تؤكد عدم قيام اليهود بصلب المسيح، ورواية الإنجيل تقرر أن اليهود حكموا على المسيح وسلموه للوالي الروماني لكي يقوم بتنفيذ الصلب. فاليهود لم يكن لهم حق تنفيذ الأحكام، ومن هذه الناحية نجد الاتفاق واضحًا بين القرآن والإنجيل في نفي قيام اليهود بعملية الصلب ذاتها.

﴿... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ولا يعطي القرآن تفصيلا عن هذا الرفع، وكما يقول سيد قطب "ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع؛ أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين؟!".. إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله تعالى: ﴿ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وهذه كتلك لا تعطي تفصيلا عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي وموعده " (في ظلال القرآن ص ٨٠٢).

لكن القرآن يرسم لحياة المسيح ثلاث مراحل متعاقبة بداية بميلاده ثم موته وقيامته وذلك في قوله: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. بحيث يرتب لحدوث الوفاة قبل الرفع.. وفي آية أخرى نجد قوله تعالى: ﴿.. وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وواضح من سياق الآية أن وفاة المسيح قد حدثت بالفعل، أمَّا كيف كان ذلك؟ فالقرآن لا يدلي بتفصيل عن هذا الأمر.. أما الإنجيل فيؤكد وقوع الصلب.

٣ ـ تكفير المسيحيين واليهود

ناقشت فى مقالى السابق هجوم شاكر على رموز العقيدة المسيحية التى تؤمن بالصلب والفداء وأوضحت أن القرآن الكريم لاينكر حقيقة الصلب وأوردت الآيات الدالة على ذلك، ونتناول هنا تكفيره للمسيحيين واليهود. فقد كتب الأستاذ محمد عودة كلمة قصيرة في جريدة "الجمهورية" (٢٠ يونية ١٩٦٥) يستنكر فيها هجوم شاكر على الثقافة الغربية وعلى لويس عوض. ورد شاكر قائلا:

إن المهاجمة ليست غرضه، وإنما هو "الدفاع عن كيان أمة برمتها.. بهتك الأستار المسدلة التي يعمل من ورائها رجال اختارتهم الثقافة الغربية الوثنية المسيحية، ليحققوا لهذه الثقافة غلبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا، وعلى حياتنا، وعلى ثقافتنا، وبهذه الغلبة يتم انهيار الكيان العظيم الذي بناه آباؤنا في قرون متطاولة" أباطيل وأسمار ص ٤٩٧ .

قد يظن قارىء عبارة "الكيان العظيم الذي بناه أباؤنا في قرون متطاولة "أن الأستاذ شاكر كان يعني ضمن ما يعني حضارتنا المصرية العريقة التي تضرب في أعماق التاريخ مسافة طولها سبعة آلاف عام، أو أنه يعني شيئا مما خلفته هذه الحضارة من قيم أخلاقية ودينية وإلهامات روحية أوحت

(وطنى فى٨ يوليو ٢٠٠٧)

لإخناتون الإيمان بوحدانية خالق الكون، الذي رآه مجسدًا في قرص الشمس آتون، ورأى فيه مصدر الدفء والنماء والحياة على الأرض، أو أن شاكر كان يعني ما أنجزته هذه الحضارة من معجزات علمية ورياضية في فنون العمارة والطب (كبناء الأهرامات، وتحنيط جثث الموتى) والزراعة وتحديد مواقيتها.. لا أبدا فشاكر لا يعني شيئا من هذا الكيان الحضاري العريق مطلقًا، ولا يذكر تاريخ مصر الفرعونية إلا في مجال المخاصمة والعداء، ولا يوجه لهذا التاريخ سوى المقت الشديد، فهو يعتبر الحضارة الفرعونية من الوثنيات التي طمرها الإسلام ويقول:

"إن الفن المصري الفرعوني – على دقته وروعته وجبروته – إنما هو إلا فن وثني جاهلي قائم على التهاويل والأساطير والخرافات التي تمحق العقل الإنساني" وأن "تمثال نهضة مصر (لمختار) الذي مجده الممجدون وتغنى به أصحاب النظرات الضيقة المحدودة" لا يرى فيه إلا تقليدا لآثار حضارة قد دثرت وبادت .

وفي الوقت الذي يعلن فيه شاكر أنه يمزق "أستارا مضللة" نجده ينسج أستارا أشد كثافة وغموضا، فهو يحدد هدف هجومه بأنه "الثقافة الأوروبية الوثنية المسيحية"، وهي تركيبة ملفقة ومضللة، إذ تجمع مع سبق الإصرار والتعمد بين مصطلحين لا يتفقان أبدا في شيء وهما "الوثنية" و"المسيحية" لكنه يجمع بينهما عمدا ليرضي المتعصبين من قرائه الذين يخلطون دائما بين الاثنتين،

وكأن خصوم شاكر لا يعجبهم في الثقافة الغربية سوى المسيحية الوثنية أو الوثنية المسيحية، وهذا في جوهره "عمل سياسي محض" يخرج عن نطاق البحث العلمي إلى مجال الإيديولوجيا.

لكن ذلك لن يجدي كثيرا في محاولة إخفاء الحقائق أو خلط الأوراق، لأن الحقائق الساطعة التي لا مراء فيها أن الحضارة الغربية قد أعلت من قيمة الانسان ورسخت قيمتين عظيمتين بالنسبة للفرد والمجتمع المتحضر هما: حرية الفرد والعدالة الاجتماعية.

فلماذا يتجاهل شاكر هذه المنجزات الأساسية في الحضارة الغربية ويعمد إلى زاوية الدين أو حكاية الوثنية المسيحية.. لقد فصلت هذه المجتمعات بين الدين والنظام الاجتماعي ووضعت ضمانات حقيقية لحماية الفرد وآدميته وحقوقه، وأصبح الجميع متساوين أمام القانون، لا عصمة لحاكم أو محكوم بحكم انتمائه لطائفة معينة أو لدين معين.. فلماذا يتجاهل الأستاذ شاكر هذه الجوانب المضيئة التي تهمنا في هذه الحضارة ويذهب بنا بعيدا؟

يؤسفني أن أقول إن تجاهل شاكر لقضيتي الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ثم الاندفاع إلى تكفير المسيحيين واليهود باسم كراهية الثقافة الغربية، كان يحمل في طياته دفاعا قويا عن تيارات الفكر الرجعي والنظم القبلية التي كانت تحارب مصر وتستنزف قواها في ذلك الوقت. لقد نشر شاكر هذا الكلام سنة ١٩٦٥، حين نشر سيد قطب كتابه "معالم في الطريق" الذي يكفر فيه المجتمع

كله، وربما كان ذلك في تلك الفترة من أسباب اعتقال شاكر مع الإخوان حين كانت مصر بقيادة جمال عبد الناصر مشغولة بتنفيذ خطة طموحة للتنمية من أجل تحقيق الكفاية والعدل.. وكان ميثاق العمل الوطني، الذى صدر بعد قيام الرجعية العربية بضرب تجربة الوحدة العربية بين مصر وسوريا سنة ١٩٦١، يؤكد على مطلب " الحرية والاشتراكية والوحدة ".

ومن هذا يتبين أن رفع رايات الدين ومحاربة الشرك والإلحاد كانت ولا زالت مجرد شعارات جوفاء لإلهاء جماهير البسطاء عن الأهداف الحقيقية للنضال ودفعهم إلى صراعات طائفية كما حدث في لبنان، وفي السودان، وكما يحدث الأن فى العراق وفلسطين، وهم يحاولون ذلك في مصر أيضًا، في خط واحد يتفق مع أهداف الصهيونية وإسرائيل.. لتمزيق هذه الأوطان وإبعادها عن طريق البعث الحقيقي المتمثل في الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

وبعد عرض هذه الخلفية للتاريخ والواقع أمام القارئ له أن يسأل نفسه: ماذا يستفيد النضال القومي من تكفير المسيحيين واليهود غير إثارة الفتن وتمزيق وحدة هذه الأوطان التي يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون جنبا الى جنب ؟

إن شاكر يكفر المسيحيين ويكفر اليهود ويجتهد اجتهادا متعسفا ومسرفا في تفسير آيات من القرآن ليصل إلى نتائج غريبة لايقبلها عقل أو منطق، مثل ما يقوله عن اليهود والنصارى وقت نزول القرآن:

" فكان أهل الكتاب يومئذ على ملة مبدلة من دين موسى وعيسى عليهما السلام، وكان العرب يومئذ خاصة على إرث مبدل من الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، غلب عليهم الشرك بالله، وعبادة الوثنية، اتخذوها أندادا يتقربون بعبادتها إلى الله زلفى، فيما كانوا يتوهمون، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب والنصارى جميعا في ملة جاهلية" (أباطيل وأسمار ص٥٣٩)

قد يفهم البعض قول شاكر "على ملة مبدلة من دين موسى وعيسى" على أنه تبديل للنصوص وتحريفها. وللرد على هؤلاء أسوق رأى ابن خلدون حيث يقول فى مسألة الاعتماد على التوراة: وأما ما يقال من أن علماءهم بدلوا مواضع من التوراة، بحسب أغراضهم فى ديانتهم، قال ابن عباس، على ما نقل عن البخارى فى "صحيحه" أن ذلك بعيد. وقال معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم الى كتابها المنزل على نبيها فتبدله، أو ما معناه. قال: إنما بدلوه وحرفوه بالتأويل. ويشهد لذلك قوله تعالى "وعندهم التوراة فيها حكم الله " (المائدة ٤٣) ولو بدلوا من التوراة ألفاظها لم تكن التوراة التى فيها حكم الله. وما وقع فى القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها إليهم، فإنما المعنى به التأويل" (ج٢ ص ١٠-١١) نقلا عن كتاب "تاريخ العالم" لباولوس اوروسيوس تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٧٠ .

وكلام ابن خلدون هنا ينفى وجود أى تبديل أو تحريف فى التوراة والإنجيل، ويثبت أن هذا الاتهام باطل. فكلام شاكر فيه خلط بين المفاهيم .

فالمعروف أن الجاهلية صفة تطلق على المرحلة السابقة على الإسلام لوصف الوثنيين وعبدة الأصنام في الجزيرة العربية، أما اليهود والنصارى فالقرآن يسميهم بأسمائهم تارة، وتارة أخرى بأهل الكتاب، بل كان القرآن يطلب إلى العرب أن يستفتوا أهل الكتاب ويستنيروا بمعرفتهم في فهم آياته وأحكامه، وذلك في عديد من الآيات مثل قوله "وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فَاسْأَلُوْا أَهْلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ" (سورة الأنبياء آية ٧) أو قوله "إن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فَاسْأَلِ الَّذِيْنَ يَقْرَءُوْنَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ" (سورة يونس أية ٩٤) .

فهل كان القرآن يعطي حق الفتوى والتفسير والمشورة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لو كانوا مشركين أو وثنيين كما يزعم شاكر؟ وفى تفسير الدكتور عبد الصبور شاهين لعبارة "النبى الأمي" ما ينقض رأى شاكر حيث يقول شاهين:

"فلنعد الى السورة ٢/٩٦ " هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم أياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين "فكلمة" أمى (سورة الجمعة ٢) فى هذه الآية، وفى كثير غيرها يقصد بها (العرب المشركين) الذين لم يتلقوا وحيا، كما هى حال اليهود والنصارى، وهم لذلك يعيشون فى جهل بشرع الله. وفى تفسير الطبرى أخبار كثيرة مرفوعة الى ابن عباس تؤيد هذا المعنى وتزكيه . ثم يضيف: " فالنبى الأمي – لا يعنى

إذن (النبى الجاهل)، وإنما يعنى (نبى الوثنيين) واشتقاق الكلمة العربية (أمة) يرجع بالتأكيد إلى العبرية Ummot ba Olam أى (أمم العالم) الوثنيين الذين كان اليهود والنصارى يعرفونهم "كتاب تاريخ القرآن" (ص٤٨-٤٩) .

وكلام الدكتور عبد الصبور شاهين يقطع بأن اليهود والنصارى لم يكونوا وثنيين ولا مشركين ولا جاهليين. إذن ما يقوله محمود شاكر كلام لا أساس له من الصحة، ولا سند له فى التاريخ أو فى القرآن، ومع ذلك فسوف نمضى معه لنسمع ما يقوله فى تفسير الآية التالية:

"هُوَ الَّذِيْ أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَىْ وَدِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّيْنِ كُلِّهِ (ولو كره المشركون)" (سورة الصف آية ٩) .

ورغم أن المقارنة هنا مع المشركين إلا أن شاكر لم يذكر عبارة (ولو كره المشركون) لكى يفسر الآية ضد اليهود والمسيحيين. حين يقول فعرف "الدين" بالإضافة إلى "الحق" وعنى به الإسلام، ثم ذكر "الدين" معرفا، مفردًا، ثم وصفه بلفظ "كله" الدال على معنى الجماعة، فكأنه قال "على كل دين" لكنه سبحانه لا يسمى شيئا من هذه الضلالات فى عبادته وطاعته "دينا" ، فجعلها كلها ملة واحدة فى الكفر، وإن اختلفت أسماؤها. والتناقض واضح بين منطوق الآية وبين النتيجة الأخيرة، إذ يقول: فعرف الدين بالإضافة إلى "الحق" وعنى به الإسلام، ثم ذكر "الدين" معرفا مفردا، لكن شاكر يفزع من هذه النتيجة حين يدرك أن

عبارة "على كل دين" تتضمن مقارنة بين الإسلام والأديان الأخرى التى هى المسيحية واليهودية، فيقفز إلى نتيجة أخرى بلا مقدمات حيث يقول:

"لكنه سبحانه لا يسمى شيئا من هذه الضلالات فى عبادته وطاعته "دينا"، فجعلها كلها ملة واحدة فى الكفر وإن اختلفت أسماؤها". هذا التفسير يخالف مضمون الآية نفسها، بل ويتناقض مع مضمون الآية الأخيرة فى نفس سورة "الصف" التى تقول:

" يَاْ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُوْنُوْا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَاْلَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّيْنَ مَنْ أَنْصَارِيْ إِلَىْ اللهِ قَاْلَ الحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَاْئِفَةٌ مِنْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ وَكَفَرَتْ طَاْئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا عَلَىْ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوْا ظَاْهِرِيْنَ ". (آية ١٤)

هذه الآية هى خاتمة سورة "الصف" وهى تعنى كما هو ظاهر من معناها أن النبى محمد يخاطب الذين آمنوا، أى اتباعه من المسلمين، أن يكونوا أنصار الله كما كان تلاميذ المسيح أو حواريوه أنصارا لله، وأن يعلنوا نصرتهم له حتى يؤمن الناس به كما آمنت طائفة من بنى إسرائيل تأثرًا بإيمان الحواريين الذين آمنوا برسالة المسيح. كيف يدعو النبى محمد أتباعه هنا للتشبه باتباع عيسى من الحواريين والوصول إلى درجتهم فى نصرة الله .. فى هذه الآية الأخيرة (١٤) إذا كانت الآية (٩) تعنى الحكم على اليهودية والمسيحية بالكفر كما يقول شاكر فيما سبق شرحه؟

الحمد لله أن القرآن الكريم بيننا وفيه بينات من الهدى والفرقان.. فالآية (٩) لا تعنى أبدا ما توصل إليه شاكر، والآية الأخيرة تنقض رأى شاكر نقضاً كاملاً، فهى تؤكد بجلاء ووضوح أن أتباع عيسى هم أنصار الله، وأن محمدا يدعو أتباعه أن يتشبهوا بهم فى نصرة الله. وهذا يرفع عنهم نهائيًا تهمة الكفر التى حاول شاكر أن يلصقها بهم، أى بالمسيحيين.

فالآيات الأولى من سورة الصف، وبالتحديد من (٥ – ٨) تؤكد صدق رسالة موسى وصدق رسالة عيسى تمهيدًا للتصديق برسالة محمد والآية (٩) تتجه أساسا ضد المشركين ولا تشير أبدا إلى اليهودية أو المسيحية إذ تقول: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" ولكن الأستاذ محمود شاكر اجتزأ الآية، فلم يذكر عبارة "وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" ليكيف المعنى حسب هواه... وهذا أمر محزن جدًا من كاتب يتشدَّق بالمنطق وبالمنهج مثل الأستاذ محمود شاكر. وقد رأيناه من قبل، يعيب بشدة على لويس عوض أنه اجتزأ خبر راهب دير الفاروس الذي نقله من كتاب طه حسين، ويتهمه بالغش وبالجهل التام بمناهج الدراسات الأدبية.

إن آفة الرأى الهوى، وآفة الدين التعصب، وقد اندفع الأستاذ شاكر بفعل الهوى إلى هذا الجموح والشطط. فقول شاكر: إن اليهودية والمسيحية هما "ملة واحدة فى الكفر" يعنى أنه حكم بكفر اليهود والمسيحيين، وبهذا يكون الأستاذ شاكر قد حاز قصب السبق فى إصدار هذا الحكم.. وحسب علمى، فإن تاريخ

الفكر المصرى الحديث لا يعرف مفكرًا أو كاتبًا من ذوى الشأن قد قال بمثل ما يقوله شاكر، رغم تقديره لتاريخ الكنيسة المصرية منذ الفتح العربىّ وتجربة الوحدة الوطنية بين المسيحيين والمسلمين التى حفظت هذا البلد وصدت عنه كثيراً من موجات الغزو والاستعمار.

ومهما كانت النتائج المدمرة لهذا الفكر.. فإن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: هل يعترف الإسلام باليهودية وبالمسيحية كأديان سماويَّة أم لا؟

من المعروف أن الإسلام يعترف بالمسيحية واليهودية وبأديان أخرى كالصائبة والقرآن الكريم يقرر هذا المعنى فى آيتين متشابهتين:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " (سورة البقرة ٦٢).

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة المائدة ٦٩).

ويفسر المستشار محمد سعيد العشماوى هذه الآيات ضمن بحث رائع بعنوان "الإسلام والأديان الأخرى" بقوله:

"فالذين آمنوا هم أمة محمد الذين كانوا يسمون فى القرآن المؤمنين ويخاطبون بـ : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " والذين يُطلق عليهم، بعد القرآن، لفظ المسلمين. والذين هادوا هم أتباع موسى من اليهود. والنصارَى – نسبة إلى بلدة الناصرة التي بدأ فيها المسيح رسالته هم المسيحيون (نسبة إلى المسيح) على اختلاف نحلهم ومذاهبهم. والصابئون قوم كانوا يتوسلون بالنجوم لعبادة الله. وكل من كان من هؤلاء أو من غيرهم، فالبيان ليس على وجه الحصر أو التحديد بل على وجه التمثيل والتشبيه: كل الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

"فالقاعدة الأساسية التى قررها القرآن، ويكررها مرتين، أن كل من آمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحا فأجره عند الله، ولا خوف عليه ولا حزن" كما يقول الأستاذ سعيد العشماوى. "

(مجلة "الأزمنة" نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٨)

وسوف أضيف هنا آية أخرى واضحة فى مبناها وفى معناها،: " إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّىْ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " [آل عمران ٥٥] فوعد الله هنا كما هو واضح من الآية الكريمة، وعد مطلق بلا قيد أو شرط لكل من اتبع المسيح أو سار على هدي رسالته أو قال إنى مسيحي وهو وعد مطلق لا ينقض إلى يوم القيامة. فهل هناك حجة بعد هذا الوضوح القرآني تسول لأي مكابر أن يتهم المسيحيين بالكفر؟

ثم إن القرآن يؤكد اعترافه بهذه الأديان بدعوة صريحة للتعايش مع أصحابها: " قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يتَّخِذَ بَعْضُنَا أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا اشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ" [آل عمران ٦٤].

وفى أول معاهدة وقعها النبى محمد مع اليهود نص فيها: "إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم".

وهذا يؤكد أيضًا أن اليهودية دين سماوى وليست ملة فى الكفر كما يزعم شاكر" .

لا بأس أن يتحاور أهل الأديان جميعا من أجل مزيد من الفهم المشترك والتقارب، أما أن يعمل فريق منهم على نفى الآخر واستبعاده بدعوة امتلاك الحقيقة الكاملة والمعرفة الكاملة، فهذا تطرف لا يفيد أحدا وإنما يؤدى إلى بذر بذور العداوة وإيقاع الفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وفى مصرنا العزيزة الغالية السمحة يعتبر هذا التطرف خروجا على الجماعة الوطنية التى قامت حياتها منذ أربعة عشر قرنًا على الأخوة الإنسانية والوطنية في آن واحد.

انتهى هذا البحث وإلى لقاء قادم نناقش فيه تعليقات القراء ونرد عليها

٤- تعليق على رسائل القراء

سعدت كثيرا بعدد الرسائل التى وصلتنى تعليقا على مقالاتى الخاصة بموقف القرآن من المسيحية. وكان عنوان المقال الأول "هل القرآن ينكر حقيقة الصلب" والثانى "تكفير المسيحيين" وأسعدنى أكثر أن معظم التعليقات الجادة جاءت من شباب فى عمر الزهور يتطلعون الى المعرفة الصحيحة بالنسبة الى الكتب المقدسة وبالنسبة لعلاقاتهم كأخوة وأصدقاء يعيشون فى مجتمع واحد. وهذا يؤكد أننا لانحرث فى البحر حين نتناول هذه المسائل الخلافية بالصدق والصراحة، لكى نقطع الطريق على دعاة الفرقة والتكفيريين وفقهاء الفتنة الذين يغلفون أفكارهم الشريرة بنسبتها لهذا الدين أوذاك .

لكننى لاحظت أن بعض الرسائل متأثرة بجو المشاحنات الطائفية ومحاولات الاستبعاد من هذا الجانب أو ذاك. فمن المسيحيين رسالتان تنتقد استشهادى بسيد قطب لأنه كما تقول ماريا رجعى معروف وقد حذر البعض من اختيار صفحات من كتابه "فى ظلال القرآن" لتدريسها فى المدارس وأنا مع هذا التحذير لأن سيد قطب هو الأب الروحى لحركات الارهاب الاسلامية المعاصرة، وحتى لا يتحول التلاميذ الى إرهابيين، يجب ألا يسمح لكتاباته بالتسلل الى عقول الصبية والشباب. وفى المقابل رسالة من مسلم معترض على سيد قطب أيضا لأن قطب له شطحات وبدع غير مرضية، ويطالبنى بالرجوع للمفسرين الكبار مثل الطبرى وابن كثير والسمعانى الذين تثق بهم الطوائف

الاسلامية. وهذا تعميم لا يفيد شيئا وكان الأولى بهذا المعترض أن يضيف شيئا من عنده إثراء لهذا الحوار الدائر فيقدم لنا وجهة نظر مخالفة تستند الى هذا المفسر أو ذاك .

واستشهادى بسيد قطب كان مجرد تأكيد لتفسيرى الخاص لأن آيات القرآن الكريم فى هذه النقطة واضحة وضوح الشمس . ويطالبنى (basio) فى رسالة بالإنجليزية بتقديم القصة كاملة من جميع النواحى ورواية كل الآيات، وهذا مافعلته فى حدود الحيز المتاح، ويبدو أنه لم يقرأ المقال جيدا لكنه يقول إن الذى صلب هو شخص يشبه المسيح.

ويطالبنى بأن أوافقه على رأيه ويسعدنى أن يتسع صدره لهذا التوضيح الخاص بفكرة التشبيه المشار إليها فى آية "ماصلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم ".

فقوله "شبه لهم" مسند الى من؟ فإذا جعلته مسندا إلى المسيح فهو مشبه به وليس مشبه. وإن أسندته الى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر. كذلك فإن عدالة الله سبحانه لا تقبل بوضع انسان برىء ليتحمل الصلب والعذاب بدلا من المسيح. ولو شاء الله أن يخلص المسيح من الموت على الصليب لخلصه

وطنى فى ٣١ يوليو ٢٠٠٧ .

بمعجزة واضحة مفهومة، وهو القادر على كل شيء ليس فى حاجة للتخفى أو الغش أو إخراج إحدى تمثيليات الأقنعة .

أما قولك no one of the gospels sees the event وهى عبارة غامضة وغير دقيقة لغويا لأن كلمة gospel تعنى إنجيل، وحادث الصلب مذكور بتفاصيله فى الأناجيل الأربعة. ربما أردت أن تقول إن حادث الصلب لم يشهده أحد من التلاميذ. وهذا غير صحيح لأن يوحنا كاتب الإنجيل المعروف باسمه كان حاضرا هناك بين المريمات، حيث نقرأ " وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفا قال لأمه يا امرأة هوذا إبنك. ثم قال للتلميذ هوذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته" (يوحنا١٩: ٢٥-٢٧) ويوحنا هذا هو التلميذ الذى كان يسوع يحبه، وهو الوحيد الذى سار مع المسيح حتى الصليب والذى أوصاه المسيح برعاية أمه .

كذلك كان صلب المسيح هو موضوع تبشير الحواريين والرسل ومحور كلامهم، وهو أساس عقيدة الفداء وغفران الخطايا. وهذا ما نجده مفصلا فى سفر أعمال الرسل .

وحادثة صلب المسيح هى أهم وابرز الأحداث فى تاريخ البشرية. بها بدأ التأريخ لأحداث العالم فى الغرب والشرق. وقد كتب يوسيفوس المؤرخ اليهودى المشهور فى تاريخه يقول: "إن بيلاطس البنطى حكم على المسيح بالصلب

بناء على طلب رؤساء الكهنة بيننا، والذين أحبوا المسيح أولا لم يتركوه، وهم باقون للآن يدعون مسيحيين نسبة إليه" وتاسيتوس المؤرخ الوثنى الرومانى قد ذكر فى مؤلفه المنشور بعد المسيح بنحو أربعين سنة أن المسيح قتل بأمر بيلاطس البنطى الوالى الرومانى فى عهد الامبراطور طيباريوس، وقد استقى تاسيتوس هذا الخبر من خطاب بيلاطس الذى أقر فيه بصلبه للمسيح والذى بعث به الى روما وحفظ فى سجلات الامبراطورية. كان اليهود يتهمون بيلاطس بالتواطؤ مع المسيح فارسل بيلاطس هذا الخطاب ليبرىء نفسه أمام الامبراطور. "بل إن التلمود اليهودى قد أشار الى صلب المسيح، والقرآن الكريم يشهد على اعتراف اليهود فى آية "وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ..." فى سورة النساء.

وهكذا ترى يا أخى أن حادثة صلب المسيح كانت أمراً مقرراً وحدثا معروفاً بين الوثنيين واليهود والنصارى، ليس بين العامة فقط بل وبين الخاصة أيضاً، وذلك لمدة ٦٠٠ سنة إلى أن جاء الاسلام فأنكرها المسلمون بناء على أية واحدة، قرئت بظاهر معناها دون تعمق ودون إلتفات لأربع آيات أخرى فى ثلاث سور تتحدث عن موت المسيح ورفعه وأصبحت القراءة الأولى الخاطئة هى أساس الموقف الرسمى الرافض لحقيقة الصلب كما نرى فى سورة آل عمران ٣: ٥٥

" إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى" قال بعض المفسرين إن كلمة "متوفيك" معناها مميتك، وهذا مروى عن ابن عباس ومحمد ابن اسحاق. وكان الاختلاف فى مدة الموت، فقال وهب توفى "المسيح" ثلاث ساعات ثم رفع. وقال محمد ابن اسحاق توفى سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه. والإمام البيضاوى يعتقد أن المسيح مات حقا ثلاث ساعات. وفى معجم اللغة "توفاه الله قبض روحه وتوفى فلان على المجهول قبضت روحه ومات" .

(عن كتاب "مباحث المجتهدين" لمؤلفه نقولا يعقوب غبريل – سويسرا)

أما الأخ كريستيان فيقول فى رسالته المكتوبة بالانجليزية أن الكاتب يحاول حل الخلافات بين الأديان الثلاثة. وهذا أمر بعيد عن تفكيرى. ولكن جهدى المتواضع ينصب على كشف نقاط الخلاف التى يقوم البعض بتضخيمها أو تحريفها سواء عن جهل أوبسوء نية واستغلالها لإثارة الفتنة الطائفية فى مصر بقصد التخريب والتدمير، وإثارة الفوضى لأن فقهاء الفتنة ومروجيها من كتاب الصحف والعاملين فى الاعلام كلهم مأجورون لحساب قوى عربية خبيثة تعادى الحرية وحقوق الانسان و تعمل على قمع المرأة، وتسعى لاغراق مصر فى الصراعات والفتن وجرها الى الخلف حتى تصبح تابعة لتلك الدولة أو تلك .

ثم يقول "ما الذى يفعله المسلمون حتى نحترمهم ونقبلهم، إنهم يهاجمون الانجيل ويهاجموننا. وهذا الهجوم يقصد به تجريحنا وتحويلنا عن إيماننا بالمسيح". وردى إن هناك قلة من المسلمين تفعل هذا طبعا، ولكن الأغلبية هم

من أخوتنا وأصدقاءنا الذين يشاركوننا هموم الوطن ويرفضون هذا الأسلوب ويستنكرونه. وعلينا أن نشاركهم بقوة فى العمل من أجل بناء مجتمع تسوده المحبة والوئام، وقيم المواطنة .

وتحليلى لبعض الاختلافات فى ضوء منهج القرآن باعتباره المرجع الرئيسى للاسلام والمسلمين هو محاولة لحصر هذه الخلافات فى نطاقها المحدود لإزالة سوء الفهم الذى يؤثر على الوحدة الوطنية. ويهمنى هنا أن أخبرك بأن فقهاء الفتنة فى مصر يروجون الآن لفكرة أن حمل الصليب كفر وأن المسلمين يعتدون على الكنائس لأن منظر الصليب المرفوع فوق قبة الكنيسة يثير مشاعرهم، ويطالبون بمنع إقامة الصلبان فوق الكنائس. ورغم أن بعض هؤلاء الخبثاء يحملون شهادة الدكتوراه إلا إنهم لايجرؤن على إعمال عقولهم فى فهم هذه القاعدة التى أرساها القرآن ورتب فيها ثلاث مراحل لحياة المسيح على النحو التالى: الميلاد ثم الوفاة وبعدها الرفع أى القيامة. وهذا ما تؤكده الأيات التالية :

١- (وسلام عليه يوم ولد ويوم "يموت" ويوم يبعث حيا) مريم ١٩-١٥

٢- (والسلام على يوم ولدت ويوم "أموت" ويوم أبعث حيا) مريم١٩-١٣

٣- (إذ قال الله ياعيسى إنى "متوفيك" ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.) آل عمران ٣-٥

٤- (وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب) سورة المائدة ٥ :١١٧

وقد تمت الوفاة عن طريق الصلب. وفى ضوء هذا الوضوح القرآنى لم تعد هناك حجة لمدعى حتى يتهمنا بالكفر أو الجحود. إن الاعتراف بهذا الأمر لن يضر أحدا بل سوف يلقى بالسكينة فى قلوب المؤمنين جميعا، ويمهد لتأكيد الأخوة بين الجميع. ففى هذا العصر الذى صار فيه العالم أشبه بقرية صغيرة تضم عشرات الأجناس والنحل والطوائف. أصبح العمل من أجل السلام واجبا مقدسا على المفكرين والعلماء والكتاب. فالكتابة رسالة انسانية عظيمة غايتها الرقى بعقل الانسان ومشاعره حتى يسمو فوق مستوى الوحوش التى تقتل بعضها بعضا .

إنها كارثة نتجت عن الثقافة الشفاهية التى تعتمد على التلقين والحفظ من قائل لقائل بين عامة المواطنين الأميين وحتى بين غالبية المثقفين الذين لم يعد لهم صبر على القراءة والتأمل والفهم سواء فى الدين أو فى غيره من علوم الدنيا، واستراحوا الى ما يقوله الخبثاء وأخذوا يرددونه كاببغاوات. وهكذا انحط مستوى التفكير ومستوى الوعى إلى أدنى درجاته، وقد أتاح هذا الحال فرصة

ذهبية لأنصاف المتعلمين أن يجعلوا من أنفسهم خطباء ومعلمين يقودون الناس الى الهلاك والدمار فيزينون لهم لعبة قتل النفس وقتل الأبرياء باسم الدين.

فثقافة التخلف التى تسود حياة المجتمعات العربية ومصر بصورة خاصة أصبحت تتغذى على فكر الخرافة وفتاوى التكفير، التى تعادى الحداثة والتقدم الحضارى والديموقراطية. فغياب الفلاسفة والعلماء من صدارة المشهد الثقافى يؤكد أننا عدنا الى العصور الوسطى بعد أن هجرنا مناهج العلوم الحديثة ومناهج العلوم العقلية الى أوهام العصر الذهبى والتخلف العثمانى .

فالمعركة التى ينبغى على المفكرين والكتاب أن يخوضونها هى معركة ثقافية بالأساس هدفها إعادة العقل المسلوب والوعى المفقود الى هذه المجتمعات وإنقاذها من الأوهام والخرافات، كى تنهض بمشاكل التنمية الشاملة فى الزراعة والصناعة من أجل توفير لقمة العيش والدواء وأبسط مستويات التعليم. ولا ننسى أن الفساد السياسى والفساد الثقافى وجهان لعملة واحدة هى غيبة العدالة والحرية. وإلى لقاء قادم لنستكمل هذا الحديث .

ولابد من مواجهة هذا الوضع بحوار ثقافى شامل وجاد لأن الدين عنصر من عناصر الثقافة التى تشمل العلوم والفنون. وعلينا أن نفهم منذ البداية أن غاية الحوار ليست إزالة الخلافات الموجودة فى الكتب المقدسة أو تصفية بعض الأديان لصالح دين معين، فالحوار أساساً يقوم على الاعتراف بحق الآخر فى الاختلاف والاحتفاظ بوجهة نظره المختلفة، وإنما البحث يكون فى

إزالة سوء الفهم والشك المتبادل بين أصحاب الأديان، وإيجاد السبل الفعالة لتحقيق التعاون المشترك من أجل الخير العام الذى هو غاية الأديان جميعا. وهذا هو الحوار المطلوب.

وقد حسم السيد المسيح هذا الأمر حين أوصانا بالبعد عن العنف وقال: "كل من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك" ورسم لنا طريق المحبة والسلام حين قال: "سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا أقول لكم أحبوا أعداءكم، باركو لاعنيكم، أحسنو إلى مبغضيكم، وصلو لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكى تكونو أبناء أبيكم الذى فى السموات" فالله هو الخالق وهو اب لجميع البشر ولا يمكن لأب أن يوقع العداوة بين أبنائه.

٥ـ الحوار الثقافى مغ الغرب

لقد ناقشت أفكار الشيخ محمود شاكر فى كتابين "لويس عوض ومعاركه الأدبية" وكتاب "صدام الأصالة والمعاصرة" وخلصت إلى أنه أصولى فج يرفض رفضا قاطعا أى ثقافة مغايرة لثقافة الإسلام. ومن ثم فإن موقفه هذا يمثل قطيعة مع الحداثة ومع الحضارة الغربية عموماً، وهو ما عبر عنه بوضوح فى كتابه "رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا".

وقد تناول الدكتور مجدى وهبة هذه الرسالة بالتحليل والمناقشة فى بحث نشره بالإنجليزية عنوانه "غضب مرصود An Anger Observed" ودار حديثه فى هذا البحث حول استكشاف إمكانية الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية. وهو يقول إن شاكر لا يقبل المصالحة، يشك شكا عميقا فى التفسيرات الأجنبية. يرفض – فى الواقع – وجود إمكانية لفهم حقيقى خارج حوزة العالم الإسلامى ذاته، ثم يضيف قوله: "هنا نجد صوت الغضب والاستياء الأصيل بعد اثنى عشر قرناً من المواجهة مع الغرب".

وهو يرى أن الحوار قد يكون ممكنا بين الإسلام والغرب على أساس رغبة فى المعرفة أقوى من جانب الغرب، والاعتراف الصريح بجزيرة الماضى الاستعمارى، ولكى يأخذ هذا "الحوار" سمة حقيقية. فإن نموذج المسلم المثقف بالثقافة الأوروبية، شبه العلمانى مثل طه حسين أو النموذج شبه الماركسى كإدوارد سعيد أو حتى ما يسمى بالنموذج الإسلامى المعتدل لم يعد ضروريًّا.

فتقاليد المفكر الغربى لا تسمح له بالانشغال فى حوار مثمر مع صورة منعكسة فى مرآة، حتى لو كانت هذه المرآة تعمل على تغيير (تشويه) الصورة قليلا.

لابد أن يواجه الغرب واقعاً حقيقيا، أحد أشكال هذا الواقع الحقيقي هو الغضب الذى عبر عنه شاكر. لكن ما يقوله شاكر لا يلزم قبوله عند الغربيين بظاهر قيمته، فقد يكون لهم تفسير مختلف تماما للحقيقة التاريخية. لكن من المحتم عليهم أن يصطرعوا مع هذا الغضب الذى يعبر عنه. هذا الغضب هو نتيجة التمسك بمعتقدات راسخة فى مواجهة ما يعتقد أنه ثقافة غربية غازية .

والسؤال الذى يطرحه المهتمون بالفكر الإسلامى من الغربيين هو: كيف يمكنهم إجراء الحوار مع الغضب. كيف نصل إلى التفاهم مع صوت يتهمك بالخبث وعدم الأمانة؟

وهنا يشير الدكتور مجدى وهبة إلى اقتراح أندريه ريموند الذى يدعو إلى أن يبدأ الحوار بالنظر إلى تبعة الماضى بشىء من التعقل والتروي، مع الاعتراف بأسباب الصراع، لكن أيضاً مع التأكيد على التراث المشترك (كتراث العلوم

فصل من كتابى "صدام الأصالة والمعاصرة" كتاب الأهالى يونية ١٩٩٨. ص١١٣ – ١٣٨ عنوانه "من القطيعة الى الحوار"

الإغريقية. أرسطو وتبادل التأثير فى فن المعمار والتقاليد الشعرية)، لكن هذا لا يقدم عونًا حقيقيًّا إزاء موقف يتم فيه إعادة التأكيد على الهوية القومية بربطها بعقيدة المسلمين كما يبين القرآن أنهم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وأن هذه الأمة قد هوجمت من جانب المشركين أو قليلى الإيمان.

إن تجريد هذا الغضب من أسلحته يتطلب محو ذكرى الحروب الصليبية وطرد العرب من إسبانيا، وتاريخ الاستعمار الأنجلوفرنسى، ثم الاحتلال الصهيونى لفلسطين، لكن قبل كل شيء هناك حقيقة فى حين يقبل الإسلام كثيرا من التقاليد اليهودية والمسيحية فإن الكتب اليهودية والمسيحية تنكر صحة نبوءة محمد .

ومن هذه المقدمات، يستنتج الدكتور مجدى وهبة أن التنافر وعدم التصالح ليس سياسيا أو تاريخيا فقط، وإنما جاء من الخصومة العميقة بين عقيدتين مجردتين.

إن الإشارات الصادرة من الغرب عن عدم جواز الفصل بين مشكلات العالم الحديث وإلى خبرة الإنسان العادى إزاء عملية الحداثة أو ما بعد الثورة الصناعية، لا تعد استجابات صالحة لتحدى الغضب. أما شاكر نفسه فإنه يشعر بأنه مدفوع لصب جام غضبه على فكرة الحداثة ذاتها، لأنه يعتقد أن الإسلام حق، وحيث يكون الحق فلا معنى لأي شيء آخر.

فى ختام دراسة بعنوان "المخاطر التى تواجه الإسلام" (١) قدم مارشال هدسن تلخيصًا للتحديات والاحتياجات التى تواجه الإسلام اليوم، فقال: إنها تأتى من طبيعة "التقدم الآلي" الذى يمتد من البلدان الصناعية إلى العالم فيما وراء الحدود، وهذا يؤدي إلى هدم التقاليد الثقافية والضغط على الموارد الطبيعية ثم زعزعة القيم الأخلاقية.

وفي سبيل إقامة التوازن وتفادى وقوع الفوضى، فإن الأصل الوحيد هو إشباع حاجتين من الحاجات الملحة مثل الحاجة إلى التخطيط الاجتماعى، والحاجة إلى تثقيف الجماهير بثقافة إنسانية.

فى حالة الإسلام، فإن الاحتياجات أشد إلحاحًا نتيجة لتصارع الرغبات بين الحداثة وتأكيد الذات بصورة حادة مثيرة فى لحظة وعى حاد بالذات لدى الإسلاميين، لكن بالنسبة لشاكر، فإن إشباع هذه الحاجات هو على وجه الدقة ما يسعى الإسلام لتحقيقه .

ويمضى الدكتور مجدى فى بحثه قائلاً :

إن رسالة الإسلام كما يراها شاكر هي دعوة لتخطيط اجتماعى إسلامى وتربية إسلامية، وفوق كل هذا، فإن الإسلام هو عقيدة إيمانية، يعمل فى نطاق

(١) The Venture of Islam

مجتمع إنسانى منظم فما حاجتنا إذن لاستجلاب نظم عمل من خارج هذه الحقيقة القائمة على الوحى؟ إن خبرة المجتمعات الإسلامية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسلطة إسلامية، فلماذا نتطلع إلى خبرات وتجارب ليست مرتبطة بسلطة إسلامية؟ أين يوجد الخيط الرفيع إذن، بين "الحوار" ونفى الذات عن الحقيقة؟

ومن ثم يتساءل دكتور مجدى وهبة عن معنى الحوار فى هذا السياق، وعمن يكونوا أطراف الحوار، وما هى موضوعات الحوار، وهل تدخل الآليات فى هذه المناقشة. ثم يجيب "بالتأكيد، فالأمل الوحيد هو فى تشجيع المسلمين على فحص التراث اليهودى المسيحى بروح المعرفة كما يفعل المستشرق الأمين مع التراث الإسلامى. إن حب الاستطلاع سوف يتغلب على مشاعر الغضب في وقت من الأوقات، وبما نتطلع إليه اليوم الذى نجد فيه دائرة معارف مسيحية بأقلام مسلمين".

ويختتم الدكتور مجدى بحثه بالإشارة إلى استطلاع أجرته مجلة (Partisan Review) عام ١٩٥٠ بين قرائها حول "الدين والمثقفين" ونشرت المجلة إجابات مطولة كتبها مؤمنون وغير مؤمنين. وشكلت هذه الإجابات محاولة بالغة الأهمية فى إعادة تقويم التجربة الدينية بين المسيحيين واليهود فى منتصف القرن العشرين.

ودارت أسئلة المجلة حول خمسة محاور هى :

١- أسباب الإحياء الدينى فى عصرنا.
٢- مصداقية التجربة الدينية فى عصر العلم.
٣- الاهتمام المتجدد بالأساطير وعلاقتها بالتجربة الدينية.
٤- التمييز بين الإيمان الدينى (كموقف من الإنسان والحياة الإنسانية) وبين المعتقدات الرسمية التى تبثها مؤسسات السلطة الحاكمة.

ثم أنهى كلامه بالسؤال التالى :

"هل توجد إمكانية لمثل هذا الاستطلاع بين المسلمين الأصوليين الآن؟ ربما وجب علينا أن ننتظر حتى تتلاشى موجة الغضب وتهدأ الشكوك التى تشكل الشاغل الأكبر لقلب المسلم الآن".

وتعليقًا على ما ذكره الدكتور مجدى وهبة بشأن الخلاف الجذرى بين المسلمين والمسيحيين أقول إن "الحوار" المقترح لا يتطلب أبدا المساس بما هو مقدس عند أطراف الحوار، أو تنازل أحد المتحاورين عن معتقداته إرضاء للطرف الآخر، وإلا تحولت عملية الحوار إلى عملية احتواء ثقافى، وإنما المطلوب هو أن يفهم كل طرف معتقدات الطرف الآخر ويحترم حقه فى الاختلاف وفى التعبير عنه بحرية.

وإن كان الأستاذ شاكر بحكم مكانته العلمية هو أهم الغاضبين فى العالم الإسلامى فإن ظاهرة الغضب الإسلامى تحظى باهتمام كبير من كبار المفكرين والباحثين فى الغرب، ومن بين هؤلاء **المستشرق برنارد لويس** الذي تناول هذه الظاهرة فى بحث نشر أخيرا بعنوان "جذور الغضب الإسلامى" [١] . يبحث فيه عن أسباب هذا الغضب ودوافعه الأساسية من التاريخ والواقع المعاش فى هذا العصر.

وكأنه يرد على دعوة الدكتور مجدى بشأن الاعتراف بجريرة الماضى الاستعمارى فيقول: "نحن فى الغرب متهمون بالانحلال الجنسى، وبالعنصرية، والإمبريالية وبإقامة نظم الإقطاع والعبودية، وكذلك بالطغيان والاستغلال. وفيما يخص هذه التهم بل وما هو أشنع منها، فإننا لا نملك إلا أن نقر بذنبنا، ليس كأمريكيين أو غربيين بل باعتبارنا بشراً وأعضاء فى الجنس البشرى. وبشأن أى من هذه الخطايا، لم نكن المخطئين الوحيدين فمعاملة المرأة مثلا فى الغرب، وفى العالم المسيحى عمومًا لم تجر دائمًا على أساس المساواة مع الرجل، بل كانت تتم بصورة قهرية أحيانا لكن هذا على اسوأ تقدير، كان أفضل كثيرا من نظام تعدد الزوجات وامتلاك الجوارى والمحظيات الذى كان يقرر مصير غالبية النساء على هذا الكوكب".

(١) The Roots of Muslim Rage. The Atlantic Monthey, September ١٩٩٠

وعن العنصرية يقول برنارد لويس إن هذا المصطلح قد أصبح بلا معنى الآن وهو مثل لفظ الفاشية الذي ينسب للمعارضين المنتمين لأحزاب الدكتاتوريات الوطنية. أما نظام العبودية فهو محرم دوليا الآن باعتباره عارا على الإنسانية، وكان الغربيون أول من خرج على موقف القبول الجماعى لهذا النظام فحرموه عن طريق القانون .

الإمبريالية إذن هى: سبب الشكوى؟ وإجابة عن هذا السؤال يقول: "إن بعض الدول الغربية، وبمعنى ما الحضارة الغربية ككل مسئولة عن جريرة الاستعمار، لكن هل ينبغى لنا أن نصدق أن توسع أوروبا الغربية كان يتصف بنوع من الجنوح الأخلاقى خلت منه التجارب السابقة البريئة نسبيًّا كفتوحات العرب وغزوات المغول والأتراك؟".

ثم يمضي برنارد لويس فى مناقشته فيقول :

"ولكن استخدام المصطلح فى كتابات الإسلاميين الأصوليين لا يحمل فى أغلب الأحوال نفس المعنى الذى له عند نقاد الغرب. ففى كثير من هذه الكتابات يأخذ لفظ الإمبريالية مغزى دينيا واضحًا إذ يستخدم أحيانًا فى شكل هجومى ليربط بين الاستعمار وبين التبشير، ويشمل الصليبيين والأمبراطوريات الاستعمارية الحديثة، وأحيانًا يخرج المرء بانطباع أن جريرة الأمبريالية ليست كما يعرفها نقاد الغرب، هى هيمنة شعب على شعب آخر، أو على الأصح توزيع الأدوار فى نطاق هذه العلاقة، لكن السيئ – حقًا وغير المقبول – هو

سيطرة المشركين على المؤمنين. فسيطرة المؤمنين على غير المؤمنين تعد أمرا طبيعيًّا وصحيحًا لأن هذا يؤدى إلى الحفاظ على شرع الله ويعطى غير المؤمنين فرصة لقبول الإيمان الصحيح .

أما أن يسيطر غير المؤمنين على المؤمنين فهو أمر غير طبيعى بل هو نوع من الكفر، لأنه يؤدى إلى فساد العقيدة الدينية والأخلاق فى المجتمع. وهذا يساعدنا على فهم الاضطرابات الجارية الآن فى أماكن مختلفة مثل إريتريا الأثيوبية وكشمير الهندية وسنكيانج الصينية وكوسوفو اليوجوسلافية؛ حيث يعيش فى كل هذه الأماكن شعب مسلم تحكمه حكومة غير إسلامية. وهذا يوضح أيضًا لماذا يطالب المتحدثون باسم الأقليات الإسلامية الجديدة فى غرب أوروبا بقدر من الحماية القانونية للإسلام لم تعد هذه المجتمعات تعطيه للمسيحية ذاتها، ولم تعطه أبدا لليهودية بل إن دول الموطن الأصلى لهؤلاء المسلمين لم توافق أبدا على تقديم مثل هذه الحماية لأية ديانة تخالف الإسلام. وفى مفهومهم فلا يوجد تناقض فى هذه المواقف فالإيمان الصحيح، القائم على آخر رسالات الوحى الإلهى، يجب حمايته من الإهانة والإساءة، أما الأديان الأخرى وهى إما باطلة أو ناقصة فليس لها الحق فى مثل هذه الحماية".

وشرح أسباب التحول ضد الغرب بقوله :

"لقد تحول الإعجاب بالغرب وتقليده عند كثير من المسلمين إلى عداء ورفض، وهذا المزاج يرجع فى جانب منه إلى شعور بالإذلال، نوع من الوعى المتنامى بين ورثة حضارة قديمة ظلت تسيطر زمنا طويلا، ومن ثم كان كفاح الأصوليين ضد العلمانية والحداثة. والحرب ضد العلمانية واعية مفهومة فهناك أدبيات كثيرة ترفض العلمانية على اعتبار أنها قوة وثنية شريرة جديدة، أما الحرب ضد الحداثة فليست واعية ولا مفهومة، وموجهة ضد عمليات التغيير كلها".

وينتهى برنارد لويس فى تحليله لظاهرة الغضب الإسلامى إلى القول بأنها ليست سوى تعبير عن صراع حضارى "فنحن نواجه مزاجا وحركة مفارقة جدًا لكل مستويات المسائل والسياسات بل وحتى الحكومات التى تلاحقها، ولا يقل هذا الأمر شيئًا عن صراع الحضارات وهو يتمثل فى رد فعل ربما لا عقلانى لكنه بالتأكيد رد فعل تاريخى من خصم قديم معادٍ لتراثنا اليهودى المسيحى ولحاضرنا العلمانى ورافض لانتشارهما معا على مستوى العالم كله. ومن المهم أن نحسم أمرنا فلا نسمح من جانبنا بالاستجابة للاستفزاز والقيام برد فعل تاريخى أو لاعقلانى مماثل".

وبعد هذا التحذير الذى وجهه برنارد لويس لأبناء قومه من الغرب يعود ليقول ليس كل الأفكار المستوردة من الغرب واجهت رفضا فقد أخذ أشد

الأصوليين راديكالية أفكارًا غربية ودون الاعتراف بمصدرها فقد أخذوا فكرة الحرية السياسية، وما يرتبط بها من ممارسات أخرى كالتمثيل الشبابى والانتخابات، والحكومة الدستورية حتى الجمهورية الإسلامية فى إيران لها دستور مكتوب ومجلس تشريعى منتخب وأسقفية، يقصد مجلس أعلى لرجال الدين أو آيات الله اسمه الحوذة، وأن هذه الأفكار والممارسات كما يقول برنارد لويس، ليس لها أصل في التعاليم الإسلامية وليست لها سوابق فى التاريخ الإسلامى.

"إن الحركة التى تسمى بالأصولية ليست هى التقليد الإسلامى الوحيد، فهناك حركات أخرى أكثر تسامحًا وانفتاحًا، وهى التى أوحت فى الماضى بمنجزات الحضارة الإسلامية، ونحن نأمل فى أن يسود هذا التقليد ويتغلب فى يوم ما، ولكن حتى يتم ذلك فهناك نضال شاق لا يستطيع الغرب فيه أن يفعل شيئًا، بل إن أية محاولة من جانبه قد تسبب ضررًا لأن هذه أمور ينبغى أن يقررها المسلمون فيما بينهم، وفى الوقت نفسه علينا أن نحاذر من جميع النواحى حتى نتجنب مخاطر فترة جديدة من الحروب الدينية، التى قد تنشأ من تفاقم الخلافات وإحياء الأحقاد القديمة".

ومن أجل هذه الغاية يدعو برنارد لويس لإعطاء تقدير أكثر للثقافة الأخرى الدينية والسياسية عن طريق دراسة تاريخ وآداب هذه الثقافة الإسلامية، وفى الوقت نفسه يدعو المسلمين لدراسة التراث اليهودى المسيحى وأن يتفهموا

ويحترموا رؤية الغرب للعلاقة بين الدين والسياسة بصفة خاصة وحتى لو لم يختاروا هذه الرؤية لأنفسهم.

وفى سبيل تقديم وصف دقيق لهذه العلاقة يقتبس برنارد لويس فقرة من خطاب ألقاه الرئيس الأمريكى جون تيلر بتاريخ ١٠ يونيو ١٨٤٣م، عبر فيه تعبيرا بليغاً منبئًا عن مبدأ الحرية الدينية فقال:

"أقدمت الولايات المتحدة على تجربة عظيمة ونبيلة يعتقد البعض أنها مخاطرة غير مسبوقة في التاريخ، هى تجربة الفصل التاريخى بين الكنيسة والدولة، فلا تقوم بيننا مؤسسة دينية بحكم القانون، لقد تحرر الضمير من كل القيود والكوابح، وأصبح مباحا لكل إنسان أن يعبد خالقه وفقا لما تمليه عليه حكمته الخاصة، فلا تفرض ضريبة لإقامة نظام سلطوى، ولا يبنى على حكم الإنسان غير المعصوم قانون صحيح للإيمان، فأتباع محمد لو قدر لأحد منهم أن يأتى إلينا فسوف يتمتع بكل ما يكفله له الدستور من حق ممارسة العبادة وفقًا لتعاليم القرآن، أما الهندى الشرقى فيمكنه أن يبنى معبدًا لبراهما إذا ارتضى ذلك. هذه هى روح التسامح التى تقوم بغرسها مؤسساتنا السياسية، فالعبرى المضطهد والمهان فى مناطق أخرى من العالم له أن يحتل مسكنه بيننا دون خوف من أحد، تحت رعاية الحكومة التى سوف تقوم بالدفاع عنه وحمايته. وهذه هى التجربة العظيمة التى شرعنا فيها وها هى تأتى ثمارها الحلوة، وبدونها سوف يكون نظامنا ناقصا".

"إن جسم الإنسان قد يتعرض للقهر والتهديد، ومع ذلك فقد ينجو، أما عقل الإنسان إذا كبلته القيود فإن طاقاته تتحلل وملكاته تتلاشى، ولا يتبقى منه إلا ما هو أرضى، فلا بد أن يظل العقل طليقا كالنور والهواء".

ومن هذا يتبين أن أمريكا كانت هى البادئة بفصل الكنيسة عن الدولة فصلا تاما، أى بتقرير الحرية الدينية لجميع من تظلهم هذه الدولة من البشر. وبعد قليل أخذ هذا المبدأ طريقه إلى كثير من دول أوروبا. وكان تقرير هذا الأمر هو بداية الانطلاق والتقدم فى مجالات العلوم والفنون والسياسة والاقتصاد حتى وصلوا إلى أقصى درجات التقدم والرفاهية. وإن كان مبدأ الحرية الدينية يفسر سر تقدم الغرب، فإنه كاف بنفس الدرجة لتفسير سر تخلف الشرق وتقهقر الحضارة العربية الإسلامية بعد أن بلغت ذروة من ذرى التقدم والانفتاح الفكرى والإنسانى فى العصر العباسى.

وهذا ما يؤكده الدكتور الطاهر أحمد مكى فى مناقشة لآراء الأستاذ محمود محمد شاكر [1] حيث يقول:

"ومع التأمل الطويل والتعمق فى تاريخنا وجدنا أن الدولة الإسلامية فقدت مقوماتها الأساسية، وانتهت إلى العجز الذى نعيشه حين انهار فيها هذان العنصران: احترام كرامة الإنسان، والاكتفاء الاقتصادى. كان فيها طغاة على

(١) مجلة الهلال ديسمبر ١٩٧٨ حول كتاب (رسالة فى الطريق الى ثقافتنا)

امتداد أرضها وعمق تاريخها، يقتلون من يشاءون حيث يشاءون، وحين كان هناك من يقف فى وجوههم ويردهم عن طغيانهم كان الأمل يزدهر، والدولة تنتعش وحين كثر عددهم (عدد الطغاة) وضعفت المواجهة أو انعدمت ساء حالنا وانتهى إلى ما نحن فيه".

وبعد أن يذكر الدكتور مكى بعض وجوه الفساد فى حياتنا الفكرية والدينية والاجتماعية والعلمية يقول:

"إن فساد الحياة الأدبية يا عالمنا الجليل، وهى فاسدة حتى النخاع، يعود إلى أسباب كثيرة، ليس من بينها التبشير أو الاستعمار أو الاستشراق، وإنما تعود في أساسها إلى أن حياتنا فاسدة، والأدب صدى لها، ولا يستقيم الظل والعود أعوج".

وهذا يقودنا إلى مشكلة السلطة فى العالم العربى الإسلامى. فالأستاذ شاكر يرى كما أوضح الدكتور مجدى أن خبرة المجتمعات الإسلامية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالسلطة الإسلامية، فلماذا نتطلع إلى خبرات ليست مرتبطة بسلطة إسلامية؟ والسؤال الذى أطرحه هنا: هل كانت هذه السلطة الإسلامية تعبيرًا حقيقيًا عن الثقافة الإسلامية التى تستمد قانونها الأخلاقى من عقيدة الإسلام كما يحددها القرآن الكريم؟

يشير برنارد لويس فى بحثه إلى أن من بين الأسباب التي تثير كراهية المسلمين لأمريكا هى تدعيمها ومساندتها لحكام قبليين وحكومات رجعية وديكتاتورية لا تعبر عن مصالح شعوبها هذا عن حكومات عصرنا.. فماذا عن تراث السلطة الإسلامية الذى يتمسك به شاكر وكثير من الأصوليين؟ ماذا يقول التاريخ عن هذه الممارسة وفى أى اتجاه سارت؟ مرجعنا هو كتاب الدكتور جمال حمدان "العالم الإسلامى المعاصر" الصادر فى القاهرة عام ١٩٧١م.

إذ يقول جمال حمدان: "إن أغلب الفرق الدينية والشيع والطوائف التى تكاثرت فجأة فى صدر الإسلام وما بعده بدأت أصلا على شكل أحزاب سياسية وصراعات على السلطة والحكم. وفى العصر الحديث ظل الدين أداة ميسورة للسياسة تستغله القوة لتشريع وجودها غير الشرعى مرة ولتبرير مظاهرها وابتزازها مرة أخرى.. فمنذ البداية استغل الاستعمار الدينى التركى الخلافة مطية وواجهة للشرعية، وباسم الدين نجح فى فرض استعماره الغاشم على المسلمين، وعلى أساس النظام الذى ابتدعه لم ينجح إلا فى أن يفاقم مشكلة الطائفية ويبلورها فى العالم العربى" (ص ١٢٥ و١٢٦) ..

وقد بدأ اقتحام هذه المشكلة من جانب الأصوليين المسلمين، ولا أدل على ذلك مما كتبه الشيخ محمد الغزالى فى كتابه المهم "أزمة الشورى" إذ كتب فى فصل بعنوان "الانتخابات بدعة" يقول " كثيرا ما رمقت المعارك الداخلية فى

تاريخنا الإسلامى ثم حدثت نفسى: ماذا لو أن النزاع بين على ومعاوية تم البت فيه فى استفتاء عام، بدلا من إراقة الدماء.

ولو سلمنا بأن الأسرة الأموية تمثل حزبا سياسيا له مبادئ معينة، فماذا علينا لو تركت آل البيت يكونون حزبا آخر يصل إلى الحكم بانتخاب صحيح. أو يحرم منه بانتخاب صحيح.

قال لى متعالم كبير: إن الانتخابات بدعة.

قلت له: وسفك الدماء واستباحة الحرمات هو السنة.

قال: إن الغوغاء لا رأى لهم.

قلت لك ألم يكن هؤلاء الغوغاء هم سواد الجيوش المقاتلة مع هذا أو ذاك. أنقبلهم مقاتلين ولا تقلبهم ناخبين.

إننى باسم الإسلام، أرفض الأخطاء التى وقع فيها "حكامه القدامى والمحدثون.. ليس لأحد من أولئك حصانة تجعله فوق النقد.. الذى أعلمه من دينى أن محمدا عليه الصلاة والسلام بعث رحمة للعالمين.. وأن الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم يقتربون منه أو يبتعدون عنه بمقدار وفائهم لله، أو غدرهم لوحيه العظيم".

وتقاليد الحكم خلال هذه العصور هى كأى موروثات أخرى، ينظر إليها على ضوء الإسلام، ولا ينظر للإسلام على ضوئها. ونظام الانتخابات كنظام الامتحان أجدى المقاييس بالإثبات والإبقاء وإن كان كلاهما يخيف.. وقد سمعت كثيرين يحتقرون رأى العامة، ونظرت إلى ما يقدمون من بديل فلم أجد شيئًا.

ما رأيك فى متحدثين عن الإسلام يستكينون فى ظل أحقر استبداد، فإذا حدثتهم عن عمود الشورى فى الإسلام قال ذلك رأى الرعاع والأمر لأهل الحل والعقد لا الرعاع.

كيف يوجد هؤلاء المأمولون المنشودون المسلمون من أهل الحل والعقد، وإذا كان اختيارهم للحاكم فالأمر إذن كما قال أبو الطيب المتنبى: "فيك الخصام وأنت الخصم والحكم".

وإذا كان لجمهور الأمة، فلابد من الانتخابات.

وقد تساءل الأستاذ أحمد بهجت فى تعقيبه على هذه الفقرات: هل نفهم من كلام الشيخ محمد الغزالى أنه يحبذ الأسلوب الغربى فى الحكم. وفى اليوم التالى كتب فى "صندوق الدنيا" يقول:

"يرى الشيخ محمد الغزالى فى كتابه "أزمة الشورى" أن الاستبداد السياسى ليس عصيانا جزئيًا لتعاليم الإسلام، وليس قتلا لشرائع فرعية فيه، إنما هو إفلات من مجاله كله ودمار على عقيدته.

إن كلمة التوحيد تعنى إفراد الله بالعبودية، وتعنى احترام حقوق الإنسان وكرامة الشعوب أيضا.

وهذا هو الفهم اللائق بالتوحيد، لأن الله تبارك وتعالى خلق الناس جميعا أبيضهم وأسودهم وجعل معيار الفضل بينهم هو التقوى، والقول بأن الإسلام أقر الشورى فى نظام الحكم، وأعفى الحاكم من نتائجها كلام باطل، وهو يقع على ألسنة لم تحسن دراسة الإسلام ولم تحسن فهم تاريخه.

والشورى لا علاقة لها بالعقائد والعبادات الحلال والحرام.. وهذا أمر ليس مجاله، وهذا أمر معلوم لدارس الفقه.. إنها بالاجتهاد لا مكان لها مع النص.

رغم ذلك فإن هناك من يرفض أن تكون الأمة مصدر السلطات.. لأن الحاكمية لله لا للشعب، وهذا لعب بالألفاظ أو جهل بمعانى التشريع.. لأن مجال الشورى هو الشئون المدنية والدنيوية والحضارية العادية.. ولا علاقة لها بتشريع الله وأحكامه.. إن الأوضاع السياسية للمسلمين لن تتصلح إذا ظل الدين فى وعيهم يهتم بفقه الحيض والنفاث، ولا يكترث لفقه المال والحكم.

لقد أمر الله بالشورى، وكان أمرا عاما مطلقًا لنبيه صلى الله عليه وسلم "وشاورهم فى الأمر" ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى كيف تكون الشورى، ولم يحدد ضماناتها.. وترك هذه الأمور كلها للمسلمين لتحديدها حسب زمانهم وأحوالهم.. وقد وضعت الديمقراطيات الغربية ضوابط محترمة للحياة السياسية الصحيحة، فلماذا لا ننقل عنهم ما يسد النقص الناشئ عن جمودنا الفقهي فى موضوع الحكم والشورى؟ لقد أغلقنا باب الاجتهاد قرابة ألف عام. فإذا سبقنا غيرنا فى شئون إنسانية مطلقة، فلا معنى لاستكبارنا عن الإفادة منه. ولا معنى للخوف من ذهاب شخصيتنا.. لأن الاقتباس والنقل يقع فى خدمة مبادئ إسلامية مقرة عندنا ابتداء.. ولا يعنى هذا خروجًا عن خطنا العتيد، ولا يعنى أننا ارتضينا أهدافًا أخرى.

ولئن كنا نحاول تحصين الشورى بضمانات لمنع الطغيان، فلحساب من نرفض هذه الضمانات لحساب الله أم لحساب الفساد السياسى المتوطن فى أكثر من قطر".

لقد نقلت ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت بـ "الأهرام [1] حيث أشاد بهذا الرأى الجدى فى مسألة السلطة والحكم، وبحكم مكانة الأستاذ محمد الغزالى العلمية والدينية فإن هذا الكلام يعد أقوى وأوضح بيان فى إباحة الأخذ والاعتماد على

١- الاهرام ١, ٢ نوفمبر ١٩٩٠

ما وضعته الديمقراطية الغربية من ضوابط محترمة للحياة السياسية الصحيحة. وهو رد حاسم على دعاة الرفض والمقاطعة للنظم الغربية، وهؤلاء يعملون لحماية مصالحهم الطبقية والانتهازية فى السلطة والحكم. كما أن دعوة الشيخ الغزالى تأتى لتعزز ضرورة الحوار بيننا وبين الغرب دون تعال أو خوف، بل على أساس الفهم والاحترام المتبادل .

وقد كتب الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى بـ "الأهرام" (١٩٨٩/٦/٢٨) تحت عنوان "مقدمات عربية للثورة الفرنسية" عن ذكرى قيام الثورة الفرنسية يقول:

"لقد كان أكثر مؤرخينا وكتابنا يعتبرونه لسنوات خلت بداية تاريخنا الحديث وفاتحة للنهضة التى انتشلتنا من عصور الانحطاط، ووضعتنا على أعتاب التقدم، بينما يرى الآن كتاب آخرون أن النهضة كانت قد بدأت فى مصر المنكوبة بالأتراك والمماليك قبل أن ينقض هذا "الفتى الصليبى المحترق المبير– أى صانع البوار! نابليون بغتة على دار الإسلام فى مصر، كما يقول الأستاذ محمود شاكر فى كتابه الأخير "رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا".

وهناك من يطرح المسألة ذاتها طرحًا مباشرا يتعلق بالحاضر لا بالماضي فيتحدث عن علاقتنا بفرنسا وأوروبا الآن ناظرا إليها بذات المنظار، فالأوروبيون صليبيون وهدفهم الرئيسى هو القضاء على الإسلام والمسلمين. وهكذا نجد أن ما يحسبه البعض من ذكريات الماضى ومسائل التاريخ هو

قضية الحاضر والمستقبل لأنه قضية علاقتنا بالعالم وبالآخرين، وهذا وجه من وجوه علاقتنا بأنفسنا، لأن من يرى غيره على حقيقته يرى نفسه على حقيقتها، ومن يزيف صورة غيره يزيف صورة نفسه فى الوقت ذاته، والذى ينكر أثر الغير فى نفسه ينكر أثره فى غيره".

وما يقوله الشاعر والمفكر الكبير هنا حق، فلا فائدة من الرفض والإنكار لفضل الغير إلا دفع الغير لإنكار فضلنا، وعندئذ تستحكم القطيعة وتتفاقم الخلافات ولا يبقى أمامنا إلا الدخول فى حرب دينية جديدة.. وهذا الأمر ليس فى مصلحتنا أبدًا بحكم التطور التكنولوجى في الغرب وامتلاكه لإمكانيات علمية وقتالية ساحقة لا نملك إزاءها شيئًا.

وهذا يجعل دعوة الحوار ضرورة حياة ووجود وعمار وتقدم وهذه الآراء التى أشرنا إليها تؤكد أهمية فتح باب الاجتهاد وتوسيع الحوار عن طريق اقتباس ما ينفعنا من نظمهم وعلومهم، بل إن الأستاذ شاكر نفسه أصبح يضم صوته الآن لدعاة الحوار وتدعيمه من أجل مزيد من الفهم والتفاهم، ومن أجل الوصول إلى تعاون مشترك فى سبيل التنمية والعدل والسلام العالمى .

ويقول إن الحوار ضرورى حتى لو بقى الناس مختلفين، وهذا كلام جميل ويسعدنى أن أكون أول من سمعه وأول من يعلنه فى هذا الكتاب .

وطالما أن الخلاف ينشأ حول المفاهيم الدينية، فلا بد أن ينشط حوار الأديان، ليس بين الإسلام والمسيحية واليهودية فقط بل بين الأديان الكبرى جميعا بما فيها البوذية والهندوسية. فهذه أديان تعتنقها شعوب كثيرة العدد ويثور بسببها مشكلات مع المسيحيين والمسلمين أيضاً.

إن صنع السلام فى هذا المناخ المتوتر تجربة عظيمة يتطلع إليها كل البشر ولابد من التفاهم بين أصحاب الأديان جميعا حتى يمكن القضاء على أسباب وبذور الشقاق بينهم.. إن الفهم والاحترام المتبادل كفيلان بتسوية خلافات كثيرة، ولابد من طليعة فكرية مثقفة ومخلصة لتقود هذا الحوار، وتضع شروطه وحدوده حتى يثمر ثماراً حسنة.. وطوبى لصناعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون.. هذا قول المسيح.. فهل ننصت إليه .

كذلك هناك تجارب كثيرة تمت على طريق الحوار بين الأديان، يمكن الاستفادة منها.. وقد سجل الدكتور وليم سليمان مسيرة هذه التجارب ونتائجها فى كتابه المهم "الحوار بين الأديان" المنشور فى القاهرة ١٩٧٦.. وقد يكون من المفيد أيضاً الرجوع إلى كتاب "ندوة الحوار بين الأديان" الذى أصدره مكتب الاتصال بالجماهيرية الليبية (١٩٨١)، وفيه رصد لتجربة الحوار الدينى بين مجموعة من الباحثين المسيحيين الغربيين وبين مجموعة من المفكرين العرب المسلمين التى عقدت فى طرابلس سنة ١٩٧٦ وحضر بعض جلساتها العقيد

معمر القذافى قائد الثورة الليبية رحمة الله عليه وقد ناقشنا آراءه فى فصل سابق.

لقد قدمت هذه التجارب عطاءً مهما فى هذا المجال، جدير بأن نعيد تقويمه ونواصله على أوسع نطاق، وهذا أمر ضرورى حتى نركز على الإيجابيات ونتجنب السلبيات. وعلينا أن نفهم منذ البداية أن غاية الحوار المطلوب ليست إزالة الخلافات الموجودة فى الكتب المقدسة أو تصفية بعض الأديان لصالح دين معين، فالحوار يقوم أساسا على الاعتراف بحق الغير فى الاختلاف والاحتفاظ بوجهة نظره المختلفة، وإنما البحث يكون فى إزالة سوء الفهم والشك المتبادل بين أصحاب الأديان، وإيجاد السبل المشتركة للتعاون من أجل الخير المشترك الذى هو غاية الأديان جميعًا .

هذا عن حوار السبعينيات الذى كشف عن هذه الآفاق الرحبة للتفاهم. ولابد من إحياء هذا الحوار وتنشيطه الآن على أن تبدأ المبادرة من جانب دولنا العربية الإسلامية بقيادة مصر، حتى ترد على صيحة العدوان الذى أطلقها المفكر الأمريكى صمويل هنتنجتون فى كتابه "صدام الحضارات والنظام العالمى الجديد" الذى يرشح فيه الإسلام كعدو رئيسى للغرب، بعد زوال الاتحاد السوفيتى.

والأهم من ذلك أن يمتد هذا الحوار إلى داخل مجتمعاتنا العربية الإسلامية للإسهام فى بناء الثقة بين أفراد المجتمع الواحد. فأزمة هذه المجتمعات فى

الأساس هى أزمة داخلية تتمثل فى غياب حرية الرأى وانقطاع الحوار بين التيارات الفكرية المختلفة وضعف مؤسسات المجتمع المدنى.

لقد بدأنا هذه المناقشة بدعوة الأستاذ شاكر إلى سلطة إسلامية.. وأفتى الأستاذ محمد الغزالى بأن الشورى تدخل فى باب الاجتهاد ، ودعا للأخذ بنظام الأحزاب والديمقراطية الغربية تحقيقا لمصالح المسلمين.. ثم جاءت صيحة المجتمع المدنى التى أطلقها الرئيس خاتمى وحقق بها انتصاره فى الانتخابات الإيرانية الأخيرة.

وهذا تحول خطير فى مسار الثورة الإيرانية، إذ لم يعد حكم الفقيه ولا حكم رجال الدين هو الحل وإنما الديمقراطية والمجتمع المدنى .

الفصل الثالث

قراءات متصلة بالموضوع

شفرة دافنشي

حديث الرواية :

إن رواج رواية بوليسية أمر ليس فيه غرابة، لكن" شفرة دافنشى" فاقت كل التوقعات. بل إنها فاجأت المؤلف، دان براون نفسه. فقد سجلت الرواية منذ نشرها انتشاراً ساحقاً. وتذهب بعض الأقوال الى أنها باعت أربعين مليون نسخة حتى الآن. واستطاعت أن تشعل عاصفة ساخنة من النقاش حول الدين والجنس، والأصول العقائدية للكنيسة الكاثوليكية، وحول فن الرينسانس؛ رموزه وشفراته. بل وحول تاريخ العالم الغربى كما نعرفه. ورغم مضمونها الخيالى المعلن والغياب الصارخ للحقائق فقد أصبحت "شفرة دافنشى" موضوعاً للهجوم الحاد من المتدينين فى العالم كله. ويكفى أن نعرف أن هناك تسعين عنوانا فى المطابع الأمريكية للرد على أخطاء دان براون وافتراءاته على الدين والتاريخ. وقد خرجت بعض هذه الكتب الى النور وحققت رواجا كبيراً مثل: "شفرة دافنشى: حقيقة أم خيال" تأليف هانك هينيجراف ." تكسير شفرة دافنشى" تأليف

داريـل بـوك. وكتـاب "الحقيقة وراء شـفرة دافنشـى" وكتـاب "استكشاف شفرة دافنشى" تأليف جارى بوك. ثم " تصدع شفرة دافنشى" لجيمس جارلو.

بالاضافة الى ما تنشره الفاتيكان والكنائس الإنجيلية عن طريق الاجتماعات والندوات والصحف والمجلات، وما تبثه الاذاعة وشبكات التليفزيون، وكأن الشعور الدينى فى أمريكا والغرب كان فى حالة استرخاء مؤقت وفوجىء بمن يثير انتباهه ويستفزه بقوة عن طريق التجاسر على ثوابته ومقدساته فهبت بعض كتائبه فى تحفز لافت للنظر لكى تكشف الأكاذيب وتدحض المفتريات. كما يلاحظ أن الذين يشاركون فى هذه الحملة المضادة على "شفرة دافنشى" (القصة والفيلم) هم من كبار النقاد والباحثين وعلماء الدين. فقد جاءت هذه الرواية بمثابة امتحان لعامة المثقفين والقراء فى أمريكا، وأثبتت اقبالهم غير المسبوق على قراءتها وتصديق بعض ماقاله المؤلف، سطحية هؤلاء القراء ثقافيا ودينيا فى آن واحد. وهذا يؤكد رأى المفكر الانجيلى بن وزرينجتن حيث يقول:"إن أمريكا ثقافة مسكونة بالمسيح، لكنها تجهل الانجيل" .

وبالنسبة لهذه القصة فإنى أعتقد أنها محاولة واضحة لإيجاد تاريخ أسطورى لعبادة الأنثى، وهى فكرة تعود بنا الى الوراء حتى فينوس وإيزيس وغيرهما من ربات التاريخ الوثنى. وهى ليست المحاولة الأولى فى هذا الاتجاه فقد سبقتها عدة كتب أخرى لعل أهمها كتاب " الدم المقدس، الكأس المقدسة" التى اعتمد

عليها دان براون فى كتابة قصته ونقل الكثير من افتراءات مؤلفيها عن الفن والدين والتاريخ، وهى أمور سوف أتناولها فى سياق دراستى لهذا الموضوع. وكلمة الافتراءات ليست من عندى بل نطق بها أحد المؤلفين الثلاثة لقصة "الدم المقدس، الكأس المقدسة" إذ يقول إن كل ما كتبناه وكتبه دان براون هو محض هراء. وهناك مصدر آخر لبراون عند مارجريت استربيد وهى كاتبة كاثوليكية انحرفت عن الايمان وتجاهر بأنها ملحدة. وقد وضعت استربيد مجلدين أحدهما عن الآلهة فى الآناجيل: "الأنثى المقدسة" والمرأة صاحبة الجرة الرخامية، ومريم المجدلية والكأس المقدسة، أفكار غنوصية جديدة مع عبادة الإلهة." وفى فقرة من "شفرة دافنشى" يردد لانجون بعض أراء استربيد فيقول:

"إن قوة الأنثى ومقدرتها على العطاء وانتاج الحياة كانت أمراً مقدساً فى زمن ما، لكنها مثلت تهديداً للكنيسة التى يهيمن عليها الذكور. وهكذا تمت عملية اتهام الأنثى المقدسة واعتبارها كائناً مدنساً. إن الانسان وليس الله هو الذى خلق فكرة "الخطيئة الأولى" حيث أكلت حواء من التفاحة وتسبب ذلك فى سقوط الجنس البشرى. فالمرأة التى كانت مانحة للحياة صارت هى العدو". وقد وجدت هذه الأفكار تعضيدا من النساء فى أمريكا. فقد رات فيها الحركة النسائية تأكيداً لحقهن فى المساواة مع الرجال بل وتدعيما لطموحهن فى تولى المناصب القيادية. وأدى هذا الى زيادة رواج شفرة دافنشى.

وإذا كان هذا كله هراء فى هراء كما قال مؤلف "الدم المقدس"، فالسؤال الذى لابد من طرحه هنا هو: كيف يمكن لكتاب أدبى يعتمد فى بنائه على تفسيرات خاطئة ومعلومات تاريخية مغلوطة، أن يصبح عملا فكرياً أوفنياً مثيراً إلى هذا الحد؟

السر يكمن فى أن "شفرة دافنشى" هى إحدى قصص الجاسوسية المثيرة. فمنذ السطور الأولى يدخلك المؤلف فى جو الغموض والألغاز التى تحتاج الى حلول أو تفسيرات ويشدك بقوة الى متابعة الوقائع والشخصيات التى تتحرك بسرعة عجيبة، وضمن حبكة قصصية شديدة التعقيد. تنتقل بالقارىء من سر مدهش الى آخر، ومن رسالة مشفرة الى أخرى، ومن مؤامرة قديمة الى مؤامرة حديثة بأسلوب لغوى شديد الثراء مما يخلب لب القارىء ويجعله يلهث بغية الوصول الى فهم معانى الرموز أو فك أسرار الشفرات. وينسيه ولو مؤقتا غرابة الأشخاص والأفكار.

ففى بداية القصة يتم استدعاء روبرت لانجون، وهو أستاذ متميز فى علم الرموز الدينية بجامعة هارفارد، للحضور من فندق ريتز فى باريس الى متحف اللوفر، للمساعدة فى كشف غموض جريمة قتل جاك سونيير أمين المتحف، خصوصاً وأنه كان على موعد للقاء القتيل فى تلك الليلة. ويأتى لانجون الى مسرح الجريمة فى صحبة مدير مكتب المباحث بيزو فاشى. ويبدو المشهد

غريباً ووحشياً حيث جثة القتيل ممدة على أرضية المتحف عارية وفى شكل نجمة خماسية، وعلى صدره رسم مشوش بالدم لخمسة خطوط مستقيمة ومتقاطعة بحيث تشكل نجمة خماسية أخرى، مما آثار فضول رجل المباحث الذى لم يكف عن طرح الأسئلة والآخر يجيب بأن جاك سونيير هو الذى فعل هذا بنفسه، وأن النجمة الخماسية تعد واحدة من أقدم الرموز التى ظهرت على الأرض، واستخدمت على مدى أكثر من أربعة الاف عام قبل المسيح. ويتدخل بيزو فاشى قائلا بأنها رمز عبادة الشيطان وهذا الرمز الذى أكدته أفلام السينما الأمريكية التى تتناول قصص الجاسوسية والجريمة والتآمر.

يرفض لانجون هذا التفسير ويقول إن النجمة الخماسية رمز سابق على المسيحية، وكان مرتبطا بعبادة الطبيعة. لأن القدماء تصوروا العالم منقسما الى نصفين – نصف ذكرى ونصف أنثوى. وكان الذكور والإناث من الألهة يعملون من أجل المحافظة على توازن القوى. ففى جو التوازن يعمل الذكور والإناث فى انسجام تام، وحين يختل التوازن بينهما تدب الفوضى فى كل أرجاء العالم. ثم يضيف لانجون أن النجمة الخماسية تمثل النصف الأنثوى فى كل شىء، وهى فكرة يسميها مؤرخو الأديان "الأنثى المقدسة" أو "الربة الإلهة". ولأن الرموز تتسم بالمرونة، فقد قامت الكنيسة الرومانية فى زمن مبكر بتغييرها، كجزء من حملة خبيثة نظمها الفاتيكان ضد الآلهه والربات القديمة بهدف القضاء على الديانات الوثنية.

ويستمر النقاش بين الرجلين. وأثناء ذلك تدخل صوفى نوفو فجأة إذ جاءت تبحث عن جدها القتيل الذى ترك لها رسالة قبل موته يخبرها فيها بأن كلاهما قد أصبحا فى خطر. وباعتبارها خبيرة فى قراءة الكتابات السرية، فقد انضمت الى لانجون فى تفسير أسرار الجريمة. وتعثر صوفى على رسالة سرية، ومفتاح خفى بجانب لوحة الموناليزا ويتكشف لهما أن سونيير كان رئيسا لجماعة "أخوان صهيون" وهى جماعة سرية قد أخذت على عاتقها حماية السر المقدس، ويتفق الاثنان أن تعاونهما قد أصبح ضرورة من أجل الوصول الى هذا السر الذى راح ضحيته سونيير وثلاثة أخرون من أعضاء الجماعة. وحين يحسان باشتباه رجل المباحث فى لانجون واحتمال القبض عليه، تدبر صوفى حيلة للتسلل الى خارج المتحف. وبعد ذلك يذهبان الى بنك الودائع السويسرى ويحصلان على صندوق أودعه سونيير فى البنك. ويهربان. ويقول لانجون إنه لم يرى مثيلا لهذا الكأس من قبل ويتفقان على أنه بالتأكيد ليس كأس المسيح. وتعرف صوفى الرقم السرى لفتح الصندوق وتخبر لانجون أن به مخطوطاً سرياً مكتوب على لفة من ورق البردى ومعه قنينة من الخل. فإذا حاول شخص أن يفتح مخطوطة البردى بالقوة انكسرت القنينة ودمرت المخطوط تلقائيا. وهكذا استطاع جدها ان يحتفظ بهذا المكتوب الذى يؤدى الى الكأِس المقدسة. ويعلن لانجون أن الكأس تم نقلها عدة مرات تبعا للظروف المحيطة بجماعة

صهيون التى تحرس هذه الكأس وما يرتبط بها من وثائق سرية، ويتصور أنها الآن موجودة فى اسكوتلاندا فى مقر فرسان المعبد .

ولكى نفهم هذه القصة يلزمنا أن نلقى نظرة على الصراع الدائر بين جماعتين من الجماعات السرية؛ جماعة "اخوان صهيون" وجماعة " عمل الله Opus Dei " وحسبما جاء فى "شفرة دافنشى" نعرف أن "جماعة اخوان صهيون" قد أسسها الملك جودفرى دى بولون فى أورشاليم سنة ١٠٩٩، بعد احتلاله للمدينة. وكان الملك جودفرى يملك سراً توارثته الاسرة منذ زمن المسيح. وخوفا على ضياع السر بعد موته، قام بتأسيس جماعة "اخوان صهيون" للمحافظة على هذا السر جيلا بعد جيل. وأثناء وجودهم فى أورشاليم عرفت الجماعة أن هناك وثائق مدفونة تحت ركام معبد هيرودس الذى بنى فوق ركام معبد سليمان. وهم يعتقدون أن هذه الوثائق ذات أثار مدمرة ولن تتردد الكنيسة فى الحصول عليها بأى ثمن، وتجنبا لهذا الخطر أنشأوا لهم قوة عسكرية من تسعة فرسان وسموها " فرقة فرسان المسيح الفقراء ومعبد سليمان" وزعموا أن هدف هذه الفرقة هو حماية حجاج بيت المقدس. ويتفق الباحثون على أن هذه الجماعة اكتشفت شيئا من تحت خرائب المعبد، شيئا مكنهم من الحصول على الثراء الواسع والسلطة بصورة لايصل اليها خيال أحد .

وهنا يقدم لانجون ملخصاً لتاريخ الجماعة بأن هؤلاء الفرسان كانوا فى الأرض المقدسة وقت الحملة الصليبية الثانية وأبلغوا الملك بالدوين الثانى أن مهمتهم هى حماية الحجاج فمنحهم الملك مقرا بجوار المزار المهدم. وظن الفرسان أن الوثائق مدفونة تحت الركام- تحت قدس الاقداس وأخذوا يحفرون لمدة تسع سنوات، وفى النهاية وجدوا ما كانوا يبحثون عنه. وأخذوا الكنز من المعبد ثم سافروا الى أوربا حيث تعزز نفوذهم بين ليلة وضحاها. ولا احد يعرف إذا كان الفرسان قد ابتزوا الفاتيكان أو أن الكنيسة قد اشترت سكوتهم. وسرعان ما أصدر البابا انوسنت الثانى مرسوما بابويا غير مسبوق منحهم الحق فى تكوين جيشا مستقلا عن سلطة الملك ورجال الدين. وبنص العبارة أن "يصيروا قانونا لأنفسهم" وازدادت قوة الفرسان العددية والسياسية وسيطروا على ولايات كثيرة فى اثنى عشرة بلدا. وأصبحوا يقرضون الملوك المفلسين بالمال ويحصلون منهم على الفوائد وهكذا أنشأوا البنوك الحديثة واتسع نفوذهم وثروتهم.

وفى سنة ١٣٠٠، اتفق البابا كليمنت الخامس مع فيليب الثانى ملك فرنسا على خطة تم بمقتضاها القضاء على جماعة الفرسان والاستيلاء على ثروتهم. وأرسل البابا أوامر سرية مختومة الى الجنود فى كل أنحاء أوربا لتنفذ فى يوم الجمعة الموافق ١٣ من أكتوبر ١٣٠٧. وفى ذلك اليوم تم القبض على عدد لايحصى من الفرسان وتم تعذيبهم ثم احراقهم على الخازوق بتهمة الهرطقة

والشذوذ الجنسى وعبادة الشيطان. وكان هدف البابا كليمنت هو الحصول على كنز الفرسان من الوثائق السرية، لكن هذا لم يتحقق، وبقيت الوثائق فى حوزة "اخوان صهيون" الذين تمكنوا نتيجة لستار السرية الذى فرضوه على انفسهم أن يظلوا بعيدين عن هجمة الفاتيكان وظلوا يحرسون هذا البرهان وينتظرون الوقت المناسب لاعلان الحقيقة .

أما هذه الحقيقة فهى الدم المقدس أو الكأس المقدسة. وتقول صوفى ان الكأس المقدسة هى التى شرب منها المسيح فى العشاء الأخير والتى جمع فيها يوسف الرامى دم المسيح الذى كان ينزف على الصليب. فيرد لانجون إن"اخوان صهيون" يعتقدون أن الكأس ليست كأسا وإنما هى رمز الأنثى، هى مريم المجدلية. مريم المجدلية هى الوعاء المقدس. الذى حمل سلالة يسوع المسيح الملكية والرحم الذى احتضن ورثة المسيح والكرمة التى أعطت الثمرة المقدسة .

أشار تيبنج الى لوحة العشاء الأخير التى كانت تحملق فيها صوفى وقال لها: ماذا عن الشخص الذى عن يمين المسيح؟ وعندما ركزت نظرها على الصورة أحست بقشعريرة تسرى فى عروقها. لقد كان الشخص دون شك امرأة. ويؤكد تيبنج: هذه المرأة هى التى فى امكانها أن تقلب أركان الكنيسة رأسا على عقب. إنها مريم المجدلية. لقد عملت الكنيسة على اتهامها بالخطيئة وتشويه

سمعتها لأن الكنيسة كانت بحاجة لاقناع العالم بأن النبى الفانى يسوع المسيح كان كائناً إلهياً، ولم تسمح الكنيسة بنشر أى كتب تتضمن الاشارة الى الجوانب البشرية فى حياة المسيح والتى تناقض الانجيل الذى جمع فى عهد قسطنطين. كان دافنشى يعلم هذه الحقيقة جيداً، ولوحة "العشاء الأخير" هى صرخة للفت نظر العالم الى أن يسوع المسيح ومريم المجدلية كانا زوجين.

والمعروف أن لوحة "العشاء الأخير" تصور المسيح فى الوسط وعلى يمينه ستة من التلاميذ وعن يساره الستة الآخرون وجميعهم من الرجال. لكن سوء نية المؤلف قد أدى لسوء التفسير للأثواب والألوان وجعله يزعم أن بطرس الرسول هو مريم المجدلية. وسوف نعود فيما بعد للمغالطات التاريخية والدينية لتفنيدها والرد عليها من واقع دراسات علمية وبحوث أكاديمية نشرها المختصون فى مجالات التاريخ والفن وعلوم الأديان،.

أما الآن فعلينا أن نستكمل موضوع الصراع بين الجمعيات السرية والذى يشكل العمود الفقرى لهذه **القصة البوليسية**. وهى مسألة مفيدة تساعد القارىْء على التعرف على **جموح الخيال والبعد الشديد عن الواقع وعن المنطق وافتقار هذه القصة الى المصداقية**. وقد غاب هذا الجانب عن اهتمام الكثيرين بسبب التركيز على ما أُقحِم على هيكل القصة من أفكار عن التاريخ والفن والدين .

أما الطرف الثانى فى هذا الصراع فهو جماعة " **عمل الله** " التى أسسها كاهن أسبانى هو جوزيمارى إيسكريفا سنة ١٩٢٨. وتدعو الى العودة الى القيم الكاثوليكية المحافظة، وتشجع أعضاءها على التضحية بالنفس والنفيس من أجل تحقيق عمل الله. والفلسفة التقليدية لهذه الجماعة تأسست أصولها أولاً فى أسبانيا قبل عهد فرانكو، لكن بعد نشر كتاب اسكاريفا المسمى "الطريق – ٩٩٩"، عن الحياة الروحية انتشرت رسالته عبر العالم كله. وأصبحت من أكثر الجماعات الكاثوليكية نمواً وأكثرها ثراء. وقيل إنها جماعة شديدة المحافظة وانها تمارس عمليات غسيل المخ من أجل تطويع الأعضاء لغايات الجماعة السرية. لكن رئيسها الأسقف أرتجاروزا يقول "نحن محفلا من الكاثوليك أخترنا أن تكون أولى أولوياتنا هى اتباع العقيدة الكاثوليكية بقدر ما نستطيع".

ويضيف المؤلف أن هذه الجماعة جندت بعضاً من أعضائها من الرهبان للحصول على الوثائق السرية لمنع "اخوان صهيون" من نشرها والاعلان عنها. ورأى الأسقف ارتجاروزا أن حصوله على هذا السر سوف يجعله أقوى رجل فى العالم. وقد استغل تيبنج هذه الرغبة فأقنع ارينجاروزا بأن يأمر أحد أتباعه المخلصين وهو الراهب سيلاس بأن ينفذ فقط الأوامر التى يصدرها "**المعلم**" وهو لقب **تيبنج** . ودون أن يكشف تيبنج عن هويته يتولى تحريك الشخصيات عن طريق خطوط تليفونية خاصة به لايستطيع أن يتنصت عليها أحد، وذلك من أجل ضمان سرية الاتصالات. وهكذا استطاع تيبنج أن يحرض سيلاس

على مهاجمة الأعضاء الأربعة فى جماعة "اخوان صهيون" من أجل الحصول على هذه الوثائق وقد قتلهم الواحد تلو الأخر. لكن دون جدوى. فقد أفهمه هؤلاء الأعضاء وأخرهم سونيير أمين متحف اللوفر بأن المفتاح مدفون فى كنيسة سانت سولبيس فى باريس، فانتقل سيلاس الى هناك وقضى ليله يحفر فى الكنيسة ولم يجد شيئا بل ارتكب جريمة أقبح هى قتل الراهبة التى كانت تحرس الكنيسة. وعندئذ شعر بالفشل وبالندم. وفى هذه اللحظة حادثه المعلم بالتليفون فاعترف سايلاس بأنه قتل الأربعة الأوصياء على الكأس المقدسة دون أن يحقق شيئا. فطمأنه "المعلم" ودعاه للقائه لأن لديه أخبارا سارة. أما هذه الأخبار فتتعلق بما اكتشفه لانجون وصوفى، ففكر تيبنج فى توجيه سايلاس لسرقة المفتاح من صوفى عند حضورها مع لانجون لزيارته. وهنا نتبين أن رأس الأفعى فى هذه المؤامرة هو تيبنج الذى تصفه القصة بأنه مؤرخ انجليزى مختص بتاريخ الكأس المقدسة. ورغم أنه كان صديقا لسونيير لكنه أمر بقتله لأن سونيير لم يكشف الوثائق السرية فى نهاية الألفية الثانية حسبما كان مقررا من جانب جماعة "أخوان صهيون" واتهمه بأنه باع نفسه للكنيسة .

وعند حضور لانجون وصوفى بغرض الاستفادة بخبرته العلمية يخبرها تيبنج بأن **دافنشى** كان أول **رئيس** لجماعة "**اخوان صهيون**" وقد ضمن لوحاته شفرات ورموز عن الإلهة الأنثى وأن "الكأس المقدسة" هى "مريم المجدلية". ويحاول سيلاس سرقة المفتاح الحجرى من لانجون فيضربه بحيث يفقد الوعى

لكنه يفشل ويتجمع كل من تيبنج وخادمه ريمى وصوفى على سيلاس ويقيدونه ثم يهربون الى انجلترا وفى الطريق يفتحان الصندوق السرى ويهبطون فى مقاطعة (كنت Kent) ويفشل البوليس فى القبض عليهم. أما المتآمر الغامض الذى دبر قتل سونيير فهو مختبىء فى وست منستر آبى. ويكاد سايلاس أن ينجح فى سرقة المخطوط الثانى من كنيسة المعبد فى لندن، لكنه يموت بنيران البوليس. ويبحث لانجون وصوفى نوفو فى (شبترهوس) عن علامات تساعدهم فى فك شفرة المفتاح الثانى. ويعترف تيبنج بأنه أمر بقتل سونيير. وينجح لانجون فى فك شفرة المفتاح الحجرى ويقوم مفتش البوليس فاشى بالقبض على تيبنج، وأخيرا تكتشف صوفى هويتها الحقيقية فى كنيسة روزالين شابل ويقودها الأثر الى العودة الى باريس.

٢- دعوة صريحة للاباحية والانحلال

– هل صحيح أن الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة هو الطريق الوحيد "للوصول الى المعرفة الغنوصية gnosis " أى المعرفة بالإلهى كما تقول القصة ؟ (ص ٣٠٨)

– هل قامت الكنيسة فعلاً عبر العصور بإعادة تشكيل صورة الجنس بين الرجل والمرأة بحيث يبدو أنه "عمل فاضح" ؟ (ص١٢٥)

– هل صحيح أن الكنيسة وضعت الجنس فى موضع الشر لكى تواجه خطراً كان يهدد سلطتها ؟ (ص ٢٣٩)

هذه الأسئلة وغيرها الكثير سوف نناقشها ونجيب عليها استناداً على ما قدمه باحثان كبيران من رعاة الكنيسة الانجيلية فى أمريكا هما دكتور **جيمس جارلو وبيتر جونز** فى كتابهما الرائع " **تحطيم شفرة دافنشى Cracking Da Vinci Code** " (٢٠٠٤)

إن "شفرة دافنشى" ليست كتاباً جنسياً ولكنها رواية تتحدث كثيراً عن الجنس. يقول لانجون وهو يشرح لصوفى: "إن تراثنا القديم وأحوالنا النفسية تقول لنا إن الجنس متعة طبيعية. فهو أصل الاشباع الروحى الذى تتوق إليه نفوسنا لكن الديانة الحديثة تنكره كشىء مشين وتعلمنا أن نخاف من شهوتنا الجنسية

باعتبارها ذراع الشيطان." (ص٣١٠). هذا القول سبق أن قدمه لانجون لطلبته بجامعة هارفارد. ولانجون هو الشخصية الرئيسية فى "شفرة دافنشى" وهو الذى يعبر عن وجهة نظر المؤلف. وعندما نطيل النظر فيما يقوله لانجون بطول الرواية ودورانه حول الأنثى والجنس يخيل لنا أن دان برون لديه رسالة يركز على تأكيدها **ليخدع** عامة القراء بانه يتحدث عن حقائق كما يزعم.

ونحن خلال متابعتنا لأحداث الرواية، نجد كثيراً من الإشارات الى الكبت الجنسى فى الكنيسة. ونقرأ عن طقوس وشعائر تتيح للإنسان أن يتعرف على حقيقة الله. ولكننا حين ننظر الى الكنيسة بعيون غير المؤمنين نجد أنها كنيسة شديدة التسلط تتمادى فى قمعها لهذا النشاط الطبيعى الممتع الذى منحه الله للبشر من أجل اكتمال متعتهم. يقول الباحثان "**إن شفرة دافنشى فى غايتها النهائية** – عندما تضغط حتى تبلغ هذه النتيجة غير المنطقية– فإنها **تصبح دعوة لإباحة حرية الممارسة الجنسية بعيداً عن الحدود التى حددها الله.** وكان ذلك أحد العوامل التى أدت الى رواج الرواية. إذ توفر للبشر تصريحاً لاشباع شهواتهم دون التزام أو قيد يقيدهم. ولسوء الحظ فإن هذا النوع من الحرية قد أصبح ثمنه اليوم باهظا. إن وصفة Hieros Gamos التى يقدمها براون ليست اتحاداً مقدساً لكنه ببساطة فعل ماجن ومعاشرة جنسية طليقة **تتخفى فى طوايا لغة وثنية جديدة شبه دينية.** والمثل على ذلك نراه فيما يعلنه لانجون وهو يحاضر طلبة جامعة هارفارد حول الوصول الى "الألوهية" لحظة

ممارسة الجنس. لقد عبرت الطالبات عن فهمهن لشرحه "الدينى" أما الطلبة الرجال فأحسوا بالخجل وعبروا عن احتجاجهم بضحكة صبيانية بلهاء. وكان تعليق لانجون إنهم ما زالوا صبية صغار" .

الجنس مسالة عامة. فجميعنا كائنات جنسية. والوصف الأول لكل واحد منا عند الولادة هو "ولد" أم "بنت" وهو وصف جنسى. وسواء كنا ذكراً أو أنثى فإننا نشترك بوجه عام فى شئ واحد؛ أننا جئنا الى الوجود عن طريق المعاشرة الجنسية. واقتضى هذا الأمر اجتماع رجل وامرأة فى حالة عاطفية من أجل إعطائنا الحياة. فالاتحاد الجنسى هو الطريق الذى أعد لنا ولكثير من الحيوانات، من أجل التكاثر. فالنشاط الجنسى ليس اختيارا إذا قدر للجنس البشرى أن يستمر. هل خلق الجنس فقط من أجل التكاثر؟. ألم يكن فى تدبير الخالق ماهو أبعد من ذلك وأجمل.؟ نعم . إن الجنس والمتعة جزء من تخطيط شامل وهبه الله لنا تتضمن جميع النواحى الجسمانية والعاطفية والروحية. لكن هذه الأشياء الكثيرة التى خلقت لنا قد أفسدناها وانحرفنا عن طرق الله فبدلاً من الوصول الى قمة السرور والمتعة انتهت طرقنا الى الآلام وخيبة الأمل وانفصالنا نهائيا عن الله .

أغابى فى مقابل الشهوة الجسدية Agape Versus Eros

يقول د. جيمس إنه كتب بحثه للماجستير حول كلمة أغابى اليونانية فى تناقضها مع كلمة Eros اليونانية. إن شفرة دافنشى تسترخص الحب الحقيقى عندما تؤكد أن الوردة Rose هى كلمة مقلوبة الحروف من Eros وهو إسم الإله الإغريقى للشهوة الجنسية. يقول تيبنج "كانت الوردة دائما هى الرمز الأول للشهوة الجنسية عند المرأة. فالزهرة المتفتحة تمثل الأعضاء التناسلية للمرأة، أى البرعم الرائع الذى دخل منه كل أفراد الجنس البشرى الى العالم." (ص٢٥٥) وهذا الكلام يحتاج الى تصحيح. فكل البشر لم يدخلوا من هذا الباب. فآدم وحواء خلقهما الله. وهذه ليست **ذلة لسان** من براون وانما هى نقطة هامة تشيرالى **انكاره لدور الخالق**. وهذا جزء أساسى من فهمنا لشفرة دافنشى.

فالحب الذى يدعو إليه براون ويسميه "**الزواج الإلهى**" ما هو إلا **ممارسة جنسية داعرة** تذكرنا بماكان يحدث فى احتفالات ديونيسيوس الماجنة. ليس هناك امرأة كريمة ترغب فى هذا الحب الشهوانى الذى يبشر به براون والمتمثل فى الإله إيروس Eros وهنا يستشهد الباحثان بما كتبه س.إس.لويس فى كتابه " أربعة ألوان من الحب " حيث يقول عن هذا النمط من الحب الذى تحركه الشهوة الجنسية فقط:

"هذا الشيء هو متعة حسية لا أكثر، أى أنه حدث يقع فى داخل جسم الانسان. ونحن نستخدم أبأس الألفاظ حين نقول عن الرجل الشهوانى الذى يتجول فى الشوارع إنه يريد امرأة. ونقول بعبارة دقيقة، إن المرأة هى الشيء الذى لا يريده. إنه يبحث فقط عن المتعة التى تكون المرأة هى أداتها. وقياسا على موقف هذا الرجل منها نتساءل، إلى أى حد يهتم هذا الرجل بهذه المرأة بعد فترة الازهار التى لا تتعدى خمس دقائق. (فالانسان عادة لا يحتفظ بعقب السيجارة الكرتون بعد أن ينتهى من التدخين) .

فأى امرأة تقبل الحب فقط من أجل الشهوة. أى امرأة ترضى أن تكون عقب السيجارة الفارغ. لكن ذلك هو أساس الحب الذى يعرضه دان براون فى "شفرة دافنشى" باعتباره أرقى أشكال الحب. إنها وثنية كلاسيكية، لا صلة فيها بين الخالق والمخلوق، ولا تحتوى أية أسباب تدعو لاحترام قيمة الأفراد. إن دعوة براون تنحط بالعلاقة الجنسية إلى مستوى الحيوان. وهذا مناقض للروحانية بل وللأنوثة ذاتها .

٣ - هل الإنجيل يعادى المتعة الجنسية ؟

قد يبدو من وجهة نظر براون على الأقل، أن الإنجيل والكنيسة يعاديان الجنس؟. وهذا يرفضه المؤلفان جيمس جارلو وبيتر جونز يقولان: " فى الإنجيل مفاهيم رئيسية تختص بالجنس وبالتعبير الجنسى. وهذا الإنجيل، لكونه مصدر كل الحقائق بالنسبة للكنيسة، فإنه حافل باشارات رشيقة عن المتعة الجنسية بين الرجل والمرأة. والحقيقة أن الإنجيل يدعو لأقصى درجات المتعة بين الرجل والمراة. ففى سفر التكوين(٨:٢٦) رأى الناس إسحق يداعب زوجته. وفى سفر الأمثال (٥: ١٨) ما يشجع على التعبير الصريح جداً عن المتعة بين الرجل والمرأة فيقول: ليكن ينبوعك مباركاً وافرح بامرأة شبابك- الصبية المحبوبة، والوعلة الزهية، ليروك ثدياها فى كل وقت وبمحبتها اسكر دائما". وأما نشيد الأنشاد، نشيد سليمان فى العهد القديم، ماهو إلا قصيدة حب جنسية زاخرة بكل أنواع التعبير الجنسى .

وفى العهد الجديد لم تبلغ الإشارات هذا المستوى الشاعرى، لكنها موجودة. ففى رسالة كورنثوس الأولى (٧: ١-٧) يخاطب بولس الرسول الأزواج والزوجات قائلا إنهم لم يعودوا يملكون أجسادهم " ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها. ليوف الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة أيضاً الرجل. ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل. وكذلك الرجل أيضاً ليس له تسلط

على جسده بل للمرأة. لا يسلب أحدكم الآخر حقه إلا أن يكون على موافقة الى حين لكى تتفرغوا للصوم والصلاة، ثم تجتمعوا أيضاً معاً لكى لا يجربكم الشيطان بسبب عدم نزاهتكم". وبتعبير آخر، إن عليهما أن يبحثا عن اشباع متبادل فى ممارسة الحب وأكثر من هذا نقرأ إن فراش الزوجية كنز ثمين لابد من تكريمه. (عبرانيين ١٣: ٤) " ليكن الزواج مكرماً والمضجع غير مدنس" فالنشاط الجنسى والمتعة الجنسية أمور عادية، ومتوقعة، ويشجع عليها عن طريق الزواج فقط .

فالإنجيل يرسم للكنيسة وللأفراد المؤمنين مبادىء للسلوك فى كل جوانب الحياة. مع ذلك، فإن براون يتجاهل تعاليم الإنجيل الإيجابية المتعلقة بالتعبير عن الجنس، ويستبدلها بطقوس جنسية ماجنة، تسمى (الزواج الإلهى) على أنه أسمى أشكال المتعة الجسدية والروحية، وبهذا يسترخص براون هذه المتعة البالغة الثراء التى أرادها الله لنا وينحط بمغزاها العاطفى والانسانى العظيم.

هل الكنيسة تتنكر للجنس ؟ طبقا لشفرة دافنشى ؟، فقد كانت الكنيسة أكبر قوى القمع الجنسى حيث يقول: "إن الاتحاد الجنسى بين الرجل والمرأة الذى من خلاله يصل كل منهما الى الكمال الروحى، جرى نبذه كفعل شائن" (١٢٥) لكن من الذى نبذه؟ تبعا لبراون فإنها الكنيسة الكاثوليكية ففى رايه "إنه كان لها تاريخ حافل بالخداع والعنف. إذ شنت حملة وحشية على الوثنيين

وعبدة ديانات الأنثى استغرقت ثلاثة قرون واستخدمت فيها ابشع الوسائل من أجل "إعادة تعليمهم" ويمضى روبير لانجون فى الشرح بصوته الناعم فيقول لصوفى نوفو: "بالنسبة للكنيسة الأولى، فإن ممارسة الانسان للجنس من أجل الاجتماع المباشر مع الله، قد شكل تهديداً خطيراً لأساس الكنيسة الكاثوليكية، فتركها خارج الحلبة تدمر كيانها الذاتى المعلن كقناة وحيدة للوصول الى الله. ولأسباب واضحة تحركت الكنيسة بجدية تامة ودعت الى تدنيس الجنس ونبذه كفعل خاطىء مثير للإشمئزاز. وهناك ديانات كبرى أخرى فعلت نفس الشىء." (ص٣٠٩).

إن ما يقوله براون عن موقف الكنيسة المسيحية غير صحيح. فالإنجيل يمجد المتعة الجنسية الناتجة عن الزواج بين الرجل والمرأة. إن حياتنا الجنسية وحياتنا الروحية متداخلتان بعمق وبطريقة يصعب شرحها. فنحن – فى أعماقنا – كائنات روحانية خلقنا الله على شبه صورته. من أجل هذا ينبغى أن تكون حياتنا الجنسية أيضاً – بنفس الدرجة من العمق – لأننا أرقى من الحيوانات فى طبيعتنا. وبناء على هذا فلا يمكننا أن ننظر للعملية الجنسية على أنها فعل طارىء أوعارض منفصلا عن أرواحنا. وهذا يجعل العبث بالجزء الجنسى فى كينونتنا أمراً خطيراً، سواء كان ذلك عن طريق الأفعال الجنسية التى نمارسها نحن مع الآخرين، أو التى يفعلها الآخرون بنا.

ومن ثم كان الشذوذ الجنسى، واللواط والسحاق أعمالا ضارة، واهانة لله سبحانه، لأن هذه الأفعال بشذوذها وبشاعتها تشوه المظهر الكامل لصورة الله التى نعرف بها. لكن لكى يكون فعل التعبير الجنسى بين الرجل والمرأة مظهرا كاملا للصفات الإلهية، فينبغى أن يكون الرجل والمرأة واحدا فى الكمال. وهذا يتضمن الوحدانية ليس بالجسد فقط لكن وحدانية عاطفية وروحية ونفسية. الوحدانية ليست شيئا تنتهى تجربته فى لحظة بل انها تمتد بطول الحياة. وهناك عبارة تصور هذه الوحدة الفريدة للكينونة خير تصوير – تسمى (عهد الزواج).

٤ - المجتمع الأمومى والمجتمع الذكورى

تحمل شفرة دافنشى دعوة كاذبة تقول إن المسيحية عذبت النساء وقتلتهن وأن الوثنية هى التى أكدت دورهن. وهنا يطرح كتاب " تحطيم شفرة دافنشى " هذه الأسئلة :

☆ **هل كانت هناك حقا ثقافة للمجتمعات الأمومية وقامت الكنيسة بسحقها ؟**

☆ **هل قامت الكنيسة فعلا بمطاردة النساء وقتلت خمسة ملايين امرأة على مدى ثلاثة قرون كجزء من حملة وحشية لاعادة تعليم الناس ؟**

☆ **هل كان المسيح حقا هو الداعية الأصلى للحركة النسائية ؟** (ص ٢٤٨).

يوجه براون سهام اتهاماته نحو الكنيسة أو (من كانوا يمثلون الكنيسة) بأنهم حقروا شأن المرأة، واعتبروا النساء شركاء للشيطان. ثم يحاول إشعال مؤامرة بين الجنسين ويتلاعب ببعض الحقائق ليثبت أن ثقافة الأنثى الوثنية كانت أفضل من الثقافة اليهودية المسيحية. وبهذا الفعل يتجاهل براون رؤية الإنجيل للمرأة.

ويرد مؤلفا الكتاب "إن براون ليس مخطئاً تماماً حين يقول إن النساء قد تعرضن فى بعض الأحيان الى معاملة سيئة من جانب الذين يزعمون أنهم مسيحيون. وفى نفس الوقت، فإننا نعترض على أسلوب براون فى التركيز على

الاستثناءات الغريبة بينما هو يتجاهل المسيحية القائمة على نصوص الإنجيل". بل والتاريخ وانظر الى مايقوله هنا :

"لقد نجح قسطنطين وخلفاؤه فى تحويل العالم من وثنية أمومية الى مسيحية ذكورية بشن حملة من الدعاية الشديدة حقرت من شأن الأنثى المقدسة، ومحت اسم الإلهة من صفحات الديانة الحديثة نهائياً." (١٢٤)

إنه يتخيل أنه كان هناك عصر سابق على المسيحية هيمنت فيه المرأة على الحكم وشئون المجتمع. وقبل أن نناقش مزاعمه ضد المسيحية، دعنا نبدأ بفحص مسألة ثقافة الأمومة فى مقابل ثقافة الأبوة من خلال رؤية كاملة للتاريخ. إن التاريخ كله بما فيه التاريخ الدنيوى والتاريخ الكنسى، هو تاريخ ذكورى أكثر منه أنثوى. وعلى الرغم من ظهور قيادات متفوقات من الإناث سواء فى التاريخ الدنيوى أو فى تاريخ الإنجيل والكنيسة، إلا أن السيطرة والقيادة كانت دائما للرجال.

وفيما يتعلق بهذه النقطة، كتب استيفن جولدبيرج رئيس قسم الاجتماع بجامعة نيويورك سيتى، فى كتابه الذى عنوانه " لماذا يحكم الرجال؛ نظرية هيمنة المرأة" يقول :

إن موضوع السلطة والقيادة كان دائما ومازال مرتبطا بالرجل فى كل مجتمع. وأنا حين أشير الى هذا أقول إن الأبوة شىء عام ولم يكن هناك أبدا

مجتمعات أمومية. والنظريات التى تفترض أنه كان هناك شكلاً من أشكال المجتمع الأمومى فى "مرحلة مبكرة جداً من التاريخ" تركت إحساساً خادعا ومضللاً حتى جاءت اكتشافات الخمسين سنة الأخيرة لتثبت عجزنا عن الحصول على قصاصة واحدة تدل على أن مثل هذه المجتمعات الأمومية كان لها أى وجود. وهكذا أثبتت الأبحاث الحديثة عجز هذه النظريات فى التعامل مع الواقع".

ثم يضيف جولد بيرج قائلا "من بين مئات المجتمعات التى درسناها فى هذا القرن (القرن العشرين طبعا) كانت بغير استثناء مجتمعات أبوية، وتعترف مارجريت ميد قائلة: "حقيقة ... إن كل المزاعم التى روجت حول وجود مجتمعات حكمتها المرأة ما هى إلا مجرد أقوال لامعنى لها. فليس لدينا سبب واحد يدعونا لأن نصدق أنها قد وجدت اطلاقا".

إن حجج جولدبيرج واضحة. فليس هناك "قصاصة مفردة" تدل على أن المرأة كانت تقوم بدور القيادة فى الحضارات القديمة. فالرجال، طبقا لرأى عالمة الأنثروبولوجى المعروفة مارجريت ميد، كانوا فى كل مكان هم المسئولون فى واجهة المشهد" .

يكرر بـــراون هجومه على المسيحية ولكنه يمتدح الوثنية، فما هى العقدة؟ وبالمقارنة نســأل: أى الفلسفات هى التى رفعت شأن المرأة، المسيحية أم الوثنية؟ يشير براون الى أن المسيحية حقرت المرأة فى حين أكدت الوثنية مكانتها. فهل يتفق هذا مع الواقع؟ الحقيقة أن النساء فى العالم الوثنى القديم لم ينظر إليهن بالصورة التى يريد لانجون من صوفى أن تصدقها. ففى كتابه المزلزل "كيف تغيرت الحضارة بتأثير المسيحية" يقول ألفين شميدت :

" قبل مجىء المسيح، وفى زمن الهيمنة الوثنية، نجد أن حياة النساء كانت محكومة فى مستوى شديد التدنى. ففى اليونان والهند، والصين، لم تحصل النساء على أى حقوق وكن ملكية خاصة للأزواج. ولم ترتفع نظرة الفلاسفة اليونانيين عن نظرة نظائرهم من غير المسيحيين. فتعاليم أرسطو تضع المرأة فى مكان وسط بين الرجل وبين العبد. ففى اليونان القديمة لم يكن يسمح للنساء بالتعليم أو التحدث فى مكان عام. وكان ينظر لهن أحيانا كمصدر للشر. إن دخول المسيحية قد أحدث تغييرا جذريا فى مصير المرأة. حتى أن المدارس الرومانية الوثنية القديمة قد شهدت بهذا واتفقت على أن مجىء المسيحية كان نقطة التحول نحو حرية المرأة وكرامتها".

ففى كل مكان وصلت إليه المسيحية. ارتقت فيه مكانة المرأة وأحست بكرامتها. ليس فى الماضى فقط بل فى الحاضر أيضاً. فقبل دخول البعثات التبشيرية الى الصين، كان الناس يمارسون عادة قتل الأطفال للتخلص من عبء تربيتهم. وكانت النساء تجبر على وضع أقدامهن فى قيود من حديد حتى لا تنمو وذلك حفاظا على جمالها. وكانت هذه العادة تتسبب فى حدوث غرغرينة تؤدى الى بتر الأقدام وأحيانا الى موت المرأة. وفى الهند كانت المرأة تتبع زوجها الى القبر حين يموت حتى لو كانت فى مياعة الصبا. وكانت هناك طقوس "الأطفال الأرامل" كجزء من عبادة الربة الوثنية فى الحضارة الهندية، هؤلاء الأطفال كانت تتم ترقيتهن فيحصلن على مرتبة "مومسات المعبد". وقد قامت إحدى المبشرات وهى (إمى كارمايكل) بوضع حد لهذه العادة الذميمة وانقذت الفتيات الصغيرات من شرورها.

حملة كبرى لصيد الساحرات فى أوربا:

يستعيد لانجون ذكرى ما وقع من فظائع فى العصور الوسطى فى فترة تعرف باسم "المطاردة الكبرى" أو"الحرق" يذكر لانجون كيف اندفعت الكنيسة بفعل منشور عنوانه " Malleus Maleficarum " أو " The Witches` Hammer "أى مطرقة الساحرات فشنت حملة عنيفة ضد أى امرأة تمثل تهديداً لنفوذ الكنيسة، واتهامها بممارسة أعمال السحر.

"هؤلاء النسوة اللائى حسبتهن الكنيسة "ساحرات" كان بينهن عالمات وباحثات، كاهنات، وغجريات، متصوفات وعاشقات للطبيعة، علاوة على جامعات الأعشاب، ثم أى امرأة يشك فى انسجامها مع عالم الطبيعة. وعلى مدى ثلاثة قرون استمرت فيها الحملة، أحرقت الكنيسة خمسة ملايين امرأة على الخازوق." (ص ١٢٥).

لقد أقام براون مزاعمه على بحث قديم تعمد كاتبه التضليل وقد ثبتت عدم صحته. ففى مقال عنوانه "التطورات الحديثة فى دراسة حملة صيد الساحرات فى أوربا" كتبت جينى جيبونز تقول: "كثير من المقالات التى نشرت فى صحف الوثنيين لاتحتوى على معلومات دقيقة بخصوص "أزمنة حرق الساحرات" وذلك لأننا اعتمدنا بدرجة كبيرة على أبحاث عفى عليها الزمن. وتمضى جينى جيبونز لتؤكد هذا فتقول:

"إذا كانت معرفتك عن "أزمنة حرق الساحرات" قد بنيت على الأدب الشعبى أو الوثنى، فكل ما تعرفه يمكن أن يكون خطأ. خذ مثلا ما يقوله براون من أن مؤلف كتاب "مطرقة الساحرات" كان موظفا رسميا فى الكنيسة الكاثوليكية. والواقع أن الكنيسة اعترضت على نشره ورفضت اتمام الاجرات القانونية التى اقترحها، ووضعوه تحت المراقبة بعد سنوات قليلة. فالمحاكم المدنية وليست الكنيسة هى التى اعتمدت على "مطرقة الساحرات".

فغالبية أحكام الإعدام أصدرتها المحاكم المدنية وليست محاكم الكنيسة. والذين اتهمتهم الكنيسة بممارسة السحر لم تحكم عليهم بعقوبة الموت، واقتصرت أحكامها على الحرمان الكنسى والصوم على الخبز والماء لمدة عام.

تقول جيبونز:

" لقد بالغ الكتاب الشعبيون فى الحديث عن " الصيد الكبير" (أى صيد الساحرات) وقالوا إنه لم يكن مجرد عملية تخويف، وإنما كان محاولة متعمدة للقضاء نهائياً على الديانة المنافسة للمسيحية. ولكننا لا نجد اليوم أى دليل يؤيد هذه النظرية. فعندما كانت الكنيسة فى أوج قوتها (من القرن ١١ حتى ١٤) لم يقتل سوى عدد ضئيل جداً من الساحرات. ولم تصل الاضطهادات الى مستوى العدوى المنتشرة إلا بعد قيام حركة الاصلاح، حين فقدت الكنيسة الكاثوليكية سلطتها التى لم تكن تنازعها سلطة أخرى."

والبعثات التبشيرية المسيحية هى التى شجعت الملوك والمحاكم على اصدار القوانين لحماية الرجال والنساء من تهمة العمل بالسحر. وأعلنت هذه البعثات أن هذه التهمة لا أساس لها من الصحة، كما انهم يعتقدون أن هذه الأعمال التى تتهم الساحرات بممارستها ليست فى قدرة أحد من البشر. وتذكر جيبونز مثلا أن "سنودس القرن الخامس عشر لسانت باتريك قد قرر بأنّ أى مسيحى يعتقد بوجود السحر فى العالم، أى يقول بوجود ساحرة، يحرم من حضور

الكنيسة؛ وأى شخص يخلع هذه السمعة على أى كائن حى لن يقبل فى الكنيسة حتى يستنكر علنا الجريمة التى ارتكبها."

لكن ماذا عن التقديرات الخاصة بعدد النساء اللائى تم اعدامهن فى الحملة ضد الساحرات؟ تتراوح هذه التقديرات بين مئات الآلاف وبين تسعة ملايين امرأة، لكن الدراسات الحديثة أثبتت وللمرة الثانية أن هذه الأقوال ليست صحيحة.

فقد كتب روين بريجز وهو باحث فى جامعة أكسفورد يقول:

"لقد نشأت لدينا خرافة قوية وصل مداها الى حد القول بأن تسعة ملايين امرأة تم حرقهن فى أوربا، فى حملة إبادة جنسية جماعية. وهذه مبالغة شديدة تصل نسبتها الى مائتين فى المائة. لأن معظم التقديرات الحديثة تقدر عدد المحاكمات التى جرت بنسبة لا تزيد عن مائة ألف محاكمة فيما بين سنة ١٤٥٠و ١٧٥٠، بعدد بين أربعين ألف الى خمسين ألف حكم اعدام، من بينها عدد من الرجال تصل نسبتهم بين ٢٠ أو ٢٥ فى المائة .

تشير جيبونز الى باحثين آخرين هما بريان ليفاك ورونالد هطن الذين يتفقان مع بريجز فيما توصل اليه من ارقام عمن تم اعدامهم بتهمة السحر. رغم ذلك، فإن روس كليفورد وفيليب جونسون من الذين يعبرون بدقة عن مشاعر المسيحيين المستمسكين بالإنجيل يستبشعان هذا ويستنكرانه قائلين:

" أربعون ألف ضحية ... رقم مهول جدا. إن ماجرى فى محكمة التفتيش وفى محاكمة مدينة ساليم بامريكا كانت انتهاكاً صارخاً وشنيعاً لكرامة الانسان. ولا يمكن قبول أى اعتذار عنها اطلاقاً. إن حرق شخص واحد فقط هو جريمة لا يمكن تبريرها. وتختم مسز جيبونز مقالها بالقول :

" نحن الوثنيين الجدد نواجه الآن أزمة كبيرة، فعندما ظهرت المعلومات الجديدة، غير المؤرخون نظرياتهم من أجل تفسير ذلك. أما نحن فلم نفعل ونتيجة لذلك انفتحت فجوة هائلة بين نظريات الأكاديميين، ونظرة الوثنيين "العامة" حول موضوع السحر. وتعريفاً بهذه الباحثة يشير جيمز جارلو وبيتر جونز الى أن مسز جينى جيبونز كتبت هذا المقال ١٩٩٨، أى **قبل نشر** "شفرة دافنشى" بحوالى خمس سنوات. إنها **وثنية معترفة بنفسها** واهتمامها ينصب على الكتاب الذين يستخدمون معلومات خادعة ومضللة ليضعوا الكنيسية فى موضع الاتهام بخصوص حملة مطاردة الساحرات .

٥ - موقف الإنجيل من المرأة

لو أراد براون أن يستخدم معلومات صحيحة عن رؤية المسيحيين للمرأة، لوجب عليه ألا يبتعد عن الإنجيل. ولنبدأ بالعهد القديم :

ففى سفر التكوين نعرف أن كلا من الرجل والمرأة يستمدان هويتهما، واحساسهما بقيمتهما من الصلة التى تربطهما بالخالق، لأنهما خلقا على شبه صورة الله. لكن "شفرة دافنشى" تسىء الاستشهاد بالإنجيل. وتقرر أن حواء أكلت الثمرة، وهكذا أول امرأة، هى التى جلبت الخطيئة الى العالم.

مع ذلك، ففى الأصحاح الثانى من سفر التكوين الذى يعطينا مزيدا من التفاصيل بخصوص عملية الخلق أكثر من الأصحاح الأول، نقرأ أن الأمر بعدم أكل الثمرة قد وجه للرجل أولاً، أى لآدم، قبل أن تخلق حواء. (تكوين ٢/ ١٦-١٨، ٢٢) .فأول عصيان فى(تكوين ٣)، حدث بسبب عجز الرجل عن إعطاء الحماية والقدوة والرعاية لأهل بيته. لم تكن هذه خطيئة امرأة. بل كانت بالدرجة الأولى خطيئة رجل. لكن آدم الجبان أراد أن يلقى باللوم على حواء (تكوين٣:١٢) بل وحتى على الله (المرأة التى أعطيتها لى). كانت حواء شريكته، فكانت مواجهة الله لهما معا.

والقديس بولس يؤكد هذه النقطة بصورة أوضح فيقول، إن الخطيئة قد دخلت الى العالم، بفعل رجل واحد، هو آدم. فلماذا الافتراء على الإنجيل أوالمسيحية.

صورة المرأة فى العهد القديم:

عندما نتصفح أسفار العهد القديم نجد أنه أضفى على المرأة صفات الكرامة والتوقير:

فامرأة مثل أستير نرى أنها قد أظهرت قدراً من الشجاعة وأنقذت شعبها من الهلاك. وهذا عمل بالنسبة لها كان ينتهى عادة بالموت. لكن شجاعتها أنقذت شعباً كاملاً . (أستير ١-١٠)

أما راعوث فوصفت بالإخلاص، وبعد النظر، وسداد الرأى لأنها عاشت بعد وفاة زوجها مع حماتها الفقيرة، وأذلت نفسها كى توفر لنفسها ولحماتها لقمة العيش. وكانت مطيعة فتزوجت رجلا أحبها فى النهاية وتولى رعايتهما هى وحماتها. (روث١-٤) والمرأة الثالثة دابورة فكانت زوجة، ونبية، وقاضية، وقائدة عند بنى اسرائيل وكتب بأسمها سفر فى العهد القديم .

وأمثلة تكريم المرأة فى العهد الجديد عديدة. فانجيل متى يبدأ بتقديم السيرة الكاملة لنسب السيد المسيح، وتبرز فيها أسماء بعض النساء (١:١-١٦). ورغم هذا يزعم لانجون أن العهد الجديد قد ظهر الى الوجود بجهد جماعة من المتعصبين ضد المرأة. ولو كان قادة المسيحية الأوائل على هذه الدرجة من النذالة التى تعرضها " شفرة دافنشى" لما ذكر الإنجيل أى امرأة. لكنه قدم لنا خمساً هن : تمارا التى ترملت مرتين واضجعت مع حماها، وكانت أول امرأة

تذكر. ورحاب الزانية فى أريحا (يشوع ٢:١) وبيتشبع زوجة أوريا الحثى التى اضجع معها داوود النبى (صموئيل الثانى ١١:١-٢٧) وأهم امرأة فى هذه السلسة هى العذراء القديسة مريم أم المسيح. (متى ١-١٦) وقد وجدت حبلى وهى بين الثالثة عشر والخامسة عشر من العمر بطريقة اعجازية، وذلك قبل الزواج ودون معاشرة جنسية. وفى مجتمع صغير. وولدت المسيح. وصار الميلاد العذرى عقيدة أساسية فى الإيمان المسيحى. المهم أن دور الأم حظى بالتكريم فى قائمة قد تضم الأب فقط .

٦- تفكيك رموز شفرة دافنشي

Decoding the Da Vince Phenomena

يقول المؤلف (ص١٣) هناك عدد من العوامل الرئيسية الأخرى التى أثرت أيضاً فى المواقف الدينية فى الأربعين سنة الأخيرة، وتركت تأثيرها على المسيحيين جميعاً من كل الطوائف، والتى غذت بالطبع تشاؤم براون. أول هذه العوامل هو اكتشاف إثنين وخمسين نصاً تعرف الآن بالأناجيل الغنوصية، فى نجع حمادى بمصر فى ديسمبر ١٩٤٥، وفيها أصوات لم تسمع من قبل؛ أصوات توماس، وفيليب، ومريم المجدلية التى تمثل نظرة مختلفة عما فى الأناجيل القانونية (لفكر المسيحين الأوئل) .

حتى ذلك الوقت كانت المعتقدات الغنوصية تعرف غالباً من خلال كاتب القرن الثانى إيرانيوس، أسقف ليون، الذى وضع كتاباً مشهوداً عنوانه "ضد الهرطقات" "Against Heresies"، يرفض هذه الأناجيل المخالفة. وعموماً فإن الغنوصية تنكر ألوهية المسيح، وتركز على المعرفة الفردية أو الباطنية، كطريق للحصول على الخلاص ... وهى رؤية مغايرة جذرياً للحقيقة الدينية. عندما نشرت إلين بيجيلز Elaine Pagels "الأناجيل الغنوصية"

The Gnostic Gospels عام ١٩٧٩ عن النصوص المفقودة منذ زمن طويل، صارت هذه الأناجيل كتباً رائجة، بل أصبحت أفضل الكتب المباعة.

وتلاقيا مع الحركة النسائية النامية فى هذا البلد، جاءت الأناجيل الغنوصية وخصوصاً إنجيل فيليب الذى يصور مريم المجدلية باعتبارها التلميذة المفضلة عند السيد المسيح، بمثابة دليل الثورة النسائية. فإنجيل فيليب المزعوم، يعرض لنا كنيسة قديمة كانت المرأة فيها تمارس نفوذا أكبر مما كان معروفا من قبل. وفتح هذا الاكتشاف فضاءات جديدة أمام الباحثين فى الحركة النسائية من أمثال كارين كنج الأستاذة بمدرسة اللاهوت بهارفارد التى كتبت بغزارة فى موضوع مريم المجدلية فى كتابها، The Gospel of Mary Magdalaine حيث كتبت إن هذا الإنجيل "يبين لنا أنه كان هناك موروث يعتبر مريم المجدلية رسولا مهما بعد قيامة المسيح." ورواية شفرة دافنشى تعترف بهذا البحث، لكنها تستمد معظم مادتها من كاتب معين من كتاب العصر الحديث. ففى صفحة ٢٥٣ بالرواية ، يقدم براون قائمة بالكتب الموجودة فى منزل (سير لى بينج) الذى فر إليه لانجون التى تؤكد أنها مرجع ماكر لمصادر روايته.

هناك مجلدان من تأليف **مارجريت استاربيد** Margerate Starbid وهى **مارقة وخارجة على العقيدة الكاثوليكية تعترف** بأنها **ملحدة** تجمع في هذه المجلدات : الأنثى المقدسة، والمرأة حاملة الجرة الرخام The Woman with

Alabaster Jar، ومريم المجدلية والكأس المقدسة، أفكار غنوصية جديدة مع عبادة الربة. فى فقرة من "شفرة دافنشى" يردد لانجون بعض كلمات استاربيد:

"إن قوة الأنثى وقدرتها على إعطاء الحياة كانت مقدسة فى زمن ما لكنها شكلت تهديدا لكنيسة الذكور المهيمنة، وهكذا تمت شيطنة demonized الأنثى المقدسة واعتبارها مدنسة. إنه الإنسان، وليس الله، هو الذى خلق فكرة" الخطيئة الأولى" حيث أكلت حواء التفاحة وتسببت فى سقوط الجنس البشرى، المرأة التى كانت مانحة للحياة المقدسة أصبحت هى العدو.

ويظهر مسيو فاشى عدم إقتناعه بهذه التفسيرات...لأن السينما الأمريكية جعلت النجمة الخماسية كلاشيه حقيقى للشيطان فى أفلام الجرائم الغامضة. ويرد لانجون بأن هذا التفسير غير صحيح من الناحية التاريخية، لأن الكنيسة الرومانية الأولى قامت بتغييرها، كجزء من حملة عنيفة نظمها الفاتيكان للقضاء على الديانات الوثنية وتحويل الناس إلى المسيحية فوصمت الآلهة والربات الوثنية بالشر.

ويستمر الحوار بين الرجلين وفى أثناء ذلك، تفاجئهما صوفى نيفو التى جاءت تبحث عن جدها القتيل. فقد ترك لها رسالة تقول إن عائلتها لن تعود وأنهما هى وهو فى خطر ولذلك فإنه يريد أن يراها. وقد شعرت بالارتياح لوجود

لانجون فهو يستطيع أن يساعدها فى معرفة أسرار جدها، وباعتبارها خبيرة فى دراسة الكتابات السرية فبإمكانها أن تساعد فى كشف غموض هذه الجريمة .

كداعية لمفهوم يونج الخاص ب" التزامن " Synchronicity، فإن استاربيد تفضل استجابة دينية غريزية، تكون مفتوحة لإلتقاء الفكر والمادة، أو ما تصفه هى بأنه "ما فوق العادى" paranormal. وهذا يتيح لها البحث عن المعنى والبرهان فى كل شىء. وهذه ممارسة يفضلها أيضاً أصحاب نظرية المؤامرة جميعاً .

عامل آخر أشعل الاهتمام بالبحث عن شخص المسيح هو تأسيس "سينمار المسيح" سنة ١٩٨٥، وهو تطور ظاهر للحركة الإنجيلية، أسسه روبرت فنك أستاذ مادة الدين كمحاولة طموحة للتعاون فى الدراسة والتفكير حول المسيح التاريخى، وهو انفتاح معترف به (مقدس/ مكرس) وديموقراطى فى معالمه. (رغم أن الكثيرين من المشاركين هم علماء بارزين فى العلوم الإنجيلية) قصد به تفكيك النظم الهرمية للتعليم السابق حول المسيح، ونشر المعرفة والنقاش بين جماهير عريضة.

ورغم انتشار الحماس للحركة الإنجيلية إلا أن مستوى البحث الفلسفى ظل منخفضا. وهو ما يوضح سر الآهتمام والحماس الكبير لشفرة دافنشى وقبولها بطريقة غير نقدية على أنها حقيقة. "إن أمريكا أمة مسكونة بالمسيح، ولكنها

فى الوقت ذاتهُ ثقافة جاهلة بالإنجيل" . هذا ما يقوله الكاتب الإنجيلى، Ben Witherington، "عندما يكون لديك كل هذا التجميع combination فإن أى شىء يمكن أن يمر على أنه المسيح التاريخى.

والأهم أن الكتاب مربك جدا لكثيرين لأن دان براون لا يخفى هجومه على أسس المسيحية not so covertly attacking وبالأخص ألوهية المسيح. يقول داريل بوك وهو باحث لاهوتى "إن كتاب براون ليس بريئا، فهو يهدف إلى إعادة تشكيل ثقافتنا ومعتقداتنا المسيحية" كما نجد فى "الدم المقدس، والكأس المقدسة" هناك تأكيدات كثيرة لا تتفق مع الإجماع الواسع للباحثين حول شخصية المسيح التاريخية. ففكرة إن قسطنطين فرض العقيدة الخاصة بألوهية المسيح على الأساقفة فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ تم تكذيبها من جانب الباحثين والمؤرخين .

"فالمسيحيون كانوا يعلنون ألوهية المسيح منذ القرن الأول الميلادى (A.D ولكن جرت تنقيتها فى مجمع نيقية بالقرن الرابع. يقول هارولد أتريدج، عميد مدرسة اللاهوت فى جامعة ييل، إن دان براون يبدو بصورة ملحوظة غير مدرك لما تحتوى عليه رواياته من شذوذ. إن زعمه بأن المسيح قد تزوج مرفوض ليس فقط من جانب المسيحيين بل من الغنوصيين أنفسهم إذ يعتبرون هذه العلاقة إثما محرما Anathema ، وعار على النحو الذى يصوره براون

فدكتور باولو الأستاذ بجامعة Leadership University يقول "إن الغنوصية تقشعر من فكرة العلاقة الجسدية بين مريم المجدلية والمسيح" وهو شيء يكرره دان براون دون تردد. والواقع أن كتيبة حقيقية من الباحثين الموثوق بهم قد هبت لكى **تكشف كذب وبطلان شفرة دافنشى** " نقطة، نقطة، فى التليفزيون والانترنت، إذ تشهد الولايات المتحدة اليوم أكثر من تسعين عنوانا مطبوعا الآن، يتصل بموضوع شفرة دافنشى تقترح المزيد من المراجعات والتعليقات. رغم هذا كله يبقى دان براون غير نادم، وكما يقول فى موقعه على الإنترنت :

"إن الحوار فى حد ذاته قوة إيجابية لكل شخص يشترك فيه ويمنحه مزيدا من القدرة العميقة deeply empowering. فجأة، نجد أعدادا هائلة من الناس يناقشون بحماس موضوعات فلسفية مهمة، وبصرف النظر عن النتيجة التى بتوصل إليها كل فرد، فالمناقشة يمكن أن تساعد فقط فى تقوية الفهم لإيماننا الخاص our own faith .

وبينما ولبعض الوقت تضيف إبتكارات الحبكة فى شفرة دافنشى متعة تتراكم على ظهر تاريخ مزيف، فإن أولئك الذين يملكون الحقائق الحقيقية سوف يستمرون فى إهدائه بعض التذكارات الكبيرة. لكن دان براون يعرف مقدما أن إيرادات كتابه سوف تمكنه بالتأكيد أن يدفع لهم .

هـوامـش

– سونيير رسم إلهة على بطنه ص ٢٦

– كرس سونيير حياته لدراسة تاريخ الإلهة الأنثى ص ٤٦

الأسقف إرتجاروز الأسبانى كان رئيس جماعة Opus Dei ، أنقذ سيلاس وأدخله فى خدمة الرهبنة ثم أهله لقتل أعضاء جمعية أخوة صهيون .

ص٥٩ تبينج – كما تصفه الرواية المؤرخ الملكى المختص بتاريخ الكأس المقدسة، استطاع أن يخدع أرتجاروز ليقوم هو بتوجيه سيلاس لقتل الأعضاء الأربعة، ليس خدمة للكنيسة ولكن لأغراضه العلمية ومعرفة السر.

إتهام روبرت لانجون ص ٦٧

سيلاس يبحث عن keystone إذا حصل عليه سوف يصبح أرتجاروز أقوى رجل فى العالم المسيحى ص١٠٧ .

وفى درج جدها السرى وجدت صوفى سلسلة ذهبية بها مفتاح غريب الشكل ص ١١٠ .

. a golden chain with a strange shaped key

His warning: It opens a box where I keep many secrets .One day you will appreciate as much as I do. On the key she saw letters and a flower

The Mona Liza p.١٢٠

The Priory of Sion p.١٥٧-٥٨

٢

الفصل الرابع

التراث والتاريخ والواقع

١- موسوعة تراث القبط

يسعدنى فى هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر للمجلس الأعلى للثقافة وأمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور والأستاذ الدكتور عماد أبو غازى الذين هيأوا لنا هذه الفرصة العظيمة لكى نلتقى حول هذه الموسوعة، هذا الإنجاز الثقافى الكبير الذى شارك فيه أكثر من عشرين باحثا من كبار الخبراء والمتخصصين فى تراث الكنيسة المسيحية وتقاليدها وفنونها وآثارها، وفى مقدمتهم الأستاذ الدكتور سمير فوزى جرجس صاحب فكرة الموسوعة ورئيس تحريرها. واسمحوا لى أن أنتهز هذه الفرصة لأهنىء المجلس وأمينه العام الدكتور جابر عصفور والدكتور عماد أبو غازى على إنجاز الألف كتاب الأولى فى المشروع القومى للترجمة، الذى يمثل نقلة نوعية كبيرة وخطوة هامة للدخول فى ثقافة العصر والإشتباك بقوة فى حوار الحضارات.

ولعل موسوعة التراث القبطى التى نجتمع حولها اليوم تسهم فى هذا الحوار المفتوح الآن على مصراعيه داخليا وخارجيا. وليس أدل على ذلك من حضور هؤلاء الأساتذة والمفكرين الكبار للمشاركة بالحديث فى هذا الاحتفال، ويشرفنى

أن أقول أنهم تنادوا جميعاً للاحتفاء بهذا العمل وشجعونى على اقتراح هذه الندوة شعوراً منهم بأن ذلك جزء من دورهم الهام فى حركة التنوير الوطنية والانسانية. وواجب العرفان يفرض على أن أتوجه بالشكر والتقدير للدكتور عبد المنعم تليمة والدكتور عاطف العراقى ومضيفنا الكريم الدكتور عماد أبو غازى الذى أشرف على ترتيب هذا اللقاء وتنظيمه.

فالحوار يناديا جميعاً لنرسى دعائم العقلانية فى كل ما يعن لنا من أمور الحياة والمجتمع. وهذه الموسوعة القبطية، هى عدتنا فى هذا الحوار لكى نعرف أنفسنا بطريقة أفضل. وهى تتناول تاريخ المسيحية منذ دخولها أرض مصر، وما يتعلق بهذا التاريخ من صراعات حول المذاهب المسيحية واللغة والطقوس الكنسية، وكذلك التقاليد الاجتماعية والفنون القبطية، وذلك فى ست مجلدات يتناول :

أولها : سيرة حياة القديس مرقس الرسول وجهاده فى نشر المسيحية فى مصر وشمال أفريقيا، إضافة الى موضوع اللغة القبطية ورحلة العائلة المقدسة الى مصر ثم نشأة الرهبنة ومحاربة الهرطقات.

أما الجزء الثانى: فيتناول الإيمان الأرثوذكسى بحتمية التجسد والفداء بالإضافة الى مسائل العبادة والحياة النسكية .

وفى الجزء الثالث: دراسة وافية للأيقونات والأثار والفنون القبطية مزودة بالصور الملونة.

جريدة وطنى فى ٨ مارس ٢٠٠٦

والجزء الرابع: يتحدث عن تاريخ العلوم والتعليم والصحافة القبطية واللغة العربية.

ويتضمن الجزء االخامس: دراسة للقانون الكنسى والعلاقات المسكونية .

وفى الجزء السادس: نقرأ عن الموسيقى والألحان القبطية .

فى سنة ١٩٨٩، صدرت أول موسوعة قبطية باللغة الانجليزية Coptic Encyclopedea فى أمريكا وكان يرأس تحريرها المؤرخ الكبير الدكتور عزيز سوريال الذى قال :" هذه الموسوعة هى عمل إعلامى عن طريق العلم. لأن تعريف العالم بالكثير عن الأقباط هو خط الدفاع الأول عن حضارتنا وعن كياننا. إن تقديم الاعلام عن طريق العلم لا يأتى ألا بدائرة المعارف القبطية، لأن حضارتنا القبطية حضارة كاملة شاملة، تشمل كل شىء عن تاريخنا، وعن كنيستنا وعن كل نواحى الحياة عندنا من فن ومعمار وعلم ولاهوت، بل وكل شىء يختص بالأقباط. " وهذا القول يصدق أيضاً على هذه الموسوعة التى نجتمع حولها اليوم .

وقبل رحيله بقليل قال عزيز سوريال باسف شديد "عندما أسست معهد الدراسات القبطية، كان كل أملى أن يقوم المعهد والأقباط بهذا المشروع لعمق جهل العالم بالقبط وجهل القبط بالقبط أيضاً. ولكن للأسف لا معهد الدراسات قام بشىء فى هذا الصدد ولا الأقباط اهتموا بهذا المشروع وفى هذا رأيت بنعمة الله أن أتولى هذا المشروع وأقوم به"

فجهل الأقباط بأنفسهم وبتاريخهم هو أهم أسباب سلبيتهم وعزلتهم ولا خروج من هذه السلبية إلا بنهضة ثقافية عقلانية تقوم على معرفة الذات ومعرفة الآخر.

ومعرفة الذات هى أمر ضرورى لأى حوار ثقافى ناجح بين المتحاورين، وهذه الموسوعة هى خطوة هامة نحو الهدف. فنحن أحوج مانكون لمعرفة أنفسنا. ومن ثم اتسمت هذه الموسوعة بدرجة من الشمول لتغطى أكثر مجالات الحياة المسيحية المصرية بحيث تكفى للتعريف، بهوية الكنيسة الأرثوذكسية وهوية شعبها وهى هوية مصرية خالصة فكنيستنا هى كنيسة كل المصريين كما أن الأزهر الشريف هو جامعة المصريين جميعا وهاتان المؤسستان هما مناراتان عظيمتان ينبغى أن يفخر بهما كل مصرى ويعتز لأن وجود هاتين المنارتين يؤكد على قوة الروح المصرية وقدرتها على قبول التعددية الدينية التى تتجلى فى شعائر وطقوس دينية شديدة التنوع والأشكال ولكنها تعلن فى نفس

الوقت عن واحدية الغاية والاتجاه وهى عبادة الله الخالق والمبدع لهذا الكون العظيم.

وعندما أقول إنها كنيسة كل المصريين، فإننى لا أتجاوز الواقع ولا التاريخ فرجال الكنيسة المصرية هم الذين فتحوا أبواب مصر لعمرو بن العاص وهم الذين ناصروا العرب المسلمين لفتح ليبيا وبلاد المغرب. والتاريخ يشهد أن البطريك بنيامين قد أقام احتفالا مهيبا لعمرو بن العاص وأمده بالرجال لمحاربة البيزنطيين والبربر فى ليبيا وفتح قورينا وبرقة ثم دعا له بالنصر.

ومن هذا نعرف أن الأقباط هم الذين مكنوا للاسلام فى أرض مصر ومهدوا له الطريق لكى يتقدم نحو بلاد المغرب وأوربا ولا ينبغى أن يكون جزاءهم جزاء سنمار. وعلى الذين يسطنعون العداوات لإثارة الفتن أن يقرأوا التاريخ بعقول مفتوحة حتى يفهموا الحق ويعودوا الى طريق المحبة والأخوة التى تبنى ولا تخرب. فالأقباط هم جزء أصيل من بنية هذا الوطن ونسيجه المتين. وهذه الموسوعة هى هويتنا القبطية ندخل بها الى باب الحوار الأخوى البناء الذى يهتم بجوانب التنوع الخلاق ويبرز معالم الألفة والآتفاق ليحفز الناس جميعا على التعاون من أجل الخير وعلى الذين اتخذوا من العقيدة الدينية وطنا لهم وحصروا أنفسهم فى أوهام الاستعلاء والتسلط أن يعلموا أن الوطن أكبر من

ذلك بكثير، فالوطن هو نحن وهم ولا يمكن أن يكون غير ذلك. فأقباط مصر ليس هم الآخر المقصود بالعداوة والخصام.

والمسيح يقول "جئت لكى يكون لهم حياة ويكون لهم أفضل" فالحياة الأفضل هى هدف العقيدة وهدف البشرية جميعا، وعلينا أن نسعى نحو الأفضل بالبناء والتعمير من أجل السعادة المشتركة. وقد جسدت الكنيسة القبطية هذا الهدف فى ممارسة طقوسها وشعائرها. فهى تصوغ صلواتها شعراً جميلاً مفعماً بحب هذه الأرض وترفعها الى الله فى أقدس اللحظات، فتدعو بالبركة لمياه النيل حتى يأتى الفيضان فى موعده لرى الحقول وزيادة المحاصيل.

ولقد تعرض الأقباط فى القرون الأولى لموجات من الاضطهاد الشرس للتخلى عن إيمانهم، وقبول عقيدة المحتل لكنهم قاوموا وقدموا آلاف الشهداء دفاعاً عن عقيدتهم واستقلال أرضهم. وكما يقول الدكتور وليم سليمان، "كانت هذه فرصة تاريخية يسجلون فيها على أرض مصر مبدأ تقييد سلطة الحاكم فى مجال حرية العقيدة ولأن الأقباط يعتزون بهذه المرحلة من تاريخهم قد جعلوا يوم تولى الامبراطور دقليديانوس العرش وهو الذى اشتد فى اضطهادهم، بداية التقويم القبطى الذى سموه تاريخ الشهداء، وهو التقويم الزراعى القديم. وهو ما تعتمده الكنيسة لتحديد أعيادها ومواسمها. وبهذا استطاعت الكنيسة الأرثوذكسية أن تحافظ على الهوية القومية المصرية وأن تحميها من الذوبان فى الهوية اليونانية أو الرومانية".

لقد احتضنت مصر المسيحية والاسلام ايماناً من شعبها بوحدة الخالق وأخوة البشر فاجتمعت على أرضها أعظم قيم الحب والتسامح الدينى فى صيغة رحبة تقبل بالتعدد الدينى والاجتهاد الفكرى والمذهبى. إن خبرة هذا الشعب فى التعايش السلمى بين المسيحية والاسلام تؤكد إيمانه الفطرى بحرية العقيدة وحرية التفكير. وهى صيغة حضارية راقية كفيلة بانقاذ العالم كله من شرور الفرقة والتصارع والانقسام. وكان ينبغى علينا جميعاً كمصريين، مسلمين ومسيحيين، أن نجعل من هذه الخبرة العظيمة، رسالتنا الى العالم المتنازع والذى يتشوق الى الهدوء والسلام.

ورغم تعرض مصر فى السنوات الأخيرة لمخاطر التطرف والارهاب المدعوم بالتفسيرات الدينية الخاطئة الخارجة من كهوف التخلف والانغلاق العقلى إلا أننا واثقون من هزيمة هذه الفلول المأجورة لتبقى مصر مثابة للإيمان الصحيح، ووحدة واحدة متماسكة غير قابلة للتجزئة أو الانقسام. وشكراً .

هامش

يمكن الاطلاع على المقال التالى "البيزنطيون والبربر والعرب فى ليبيا ليعرف دور الاقباط المصريين فى مساعدة عمرو وجيشه لغزو ليبيا .

٢- البيزنطيون والبربر والعرب فى ليبيا

القرن السابع الميلادى R.G.GOLDCHILD

ومستر جولد تشيلد كان إلى وقت قريب مديراً لمتحف الآثار فى قورينة فى ليبيا وهو يعمل الآن (١٩٨٠) أميناً لقسم الأبحاث بمتحف كلسى بجامعة ميتشجان قبل أن يتولى منصبه كأستاذ للآثار الرومانية بجامعة لندن. وفى هذا البحث يناقش العلاقات المتداخلة بين البيزنطيين والبربر والعرب فى ليبيا القرن السابع الميلادى.

وهو يرى إن السرعة غير العادية التى تم بها غزو العرب لساحل شمال أفريقيا بين الإسكندرية وطرابلس لا تزال موضع تساؤل حتى عصرنا هذا الذى شهد الجيوش الحديثة وهى تتقدم بسرعة أكبر على نفس الطريق. إذ يؤكد أحد الكتاب المحدثين، ممن يؤهلهم علمهم التحدث جيداً عن الحروب العربية "إن الترحيب الذى لقيه العرب فى الصحراء الغربية وبرقة يوحى أن الناس فى هذه الأقاليم كانوا أنفسهم عرباً إلى حد ما" [١]، أما بالنسبة لمسار الأحداث الواقعية أثناء الحملات الأولى للغزو (٦٤٢ – ٦٤٥ ميلادية) فإننا لا نملك مع ذلك، إلا معلومات أولية جداً.

حتى المصادر العربية التى تفيض بالتفاصيل الخاصة عن غزو مصر، تكاد أن تجف تماماً بمجرد أن تذكر أن جيش عمرو بن العاص تحرك من الدلتا نحو الغرب فى طريقه للاستيلاء على برقة. ولا نجد شيئاً يذكر أكثر من الإشارة إلى الاستيلاء على برقة، إلى جانب أقل القليل من التقارير الموضوعية الخاصة بالغزو العاصف لطرابلس وصبراطا، ولا نجد أى إشارة لأى "ترحيب" بالعرب فى قورينة. وبالمقابل لا نجد أى إشارة لمقاومة السكان للعرب مقاومة طويلة قبل وصولهم إلى طرابلس. فكيف تحقق هذا النصر الملحوظ؟

قد لا يقدر لنا أبداً معرفة الحقيقة كاملة فيما يتعلق بالحملة الأولى فى شمال أفريقيا التى ضمنت للعرب راس جسر ثابت لما تلا ذلك من نجاح فى المغرب وأسبانيا. هكذا يبدو لنا أن الأمر يتطلب تحليلاً جديداً للمصادر العربية والقبطية فى ضوء دراسة ما تكشف من شواهد أثرية عديدة ومتزايدة عن أوضاع الحياة فى ليبيا القرن السابع .

فحين وضع بتلر كتابه العظيم "فتح العرب لمصر" منذ نصف قرن أو أكثر، لم يكن يعرف عن الآثار البيزنطية فى ليبيا إلا الشيء القليل، لأن عمليات المسح الهائلة التى قام بها إخوان بيتشى Beechy Brothers فى عام ١٨٢١ كشفت عن وجود عديد من الكنائس البيزنطية في مدن البنتابوليس (المدن الخمس الغربية Pentapolis) كما كان متوقعاً [٢] لكن الرحالة الذين

أتوا بعد ذلك لم يفعلوا سوى القليل من أجل توثيق الثراء الباهر الذى تفيض به المبانى البيزنطية المنتشرة فى كل أنحاء ليبيا سواء العسكرية أو الكنسية منها.

واليوم قد أصبح لدينا صورة مكتملة جداً لقورينا عشية الغزو العربى فنحن نعرف أنه كان فى هذه البلاد مستوطنات كثيفة بالسكان تشبه ما كان موجوداً فى سوريا أو آسيا الصغرى، وقد تم اكتشاف كنائس فى المدن والقرى وكانت فى الريف كثيرة جداً حقاً. كذلك تم الكشف عن قلاع وأبراج للمراقبة مبنية من أشد أنواع الحجر صلابة ومعظمها كشفت عنه عمليات المسح الحديثة.

ففي مدينة أبولونيا (سوسا)، عاصمة البنتابوليس الليبى فى الفترة من حكم أنستاسيوس إلى هرقل، قد تم التعرف على قصر الحاكم واستكشافه [٣] وفى توشيرا، حيث أقامت الحامية البيزنطية آخر مقر لها، أخذ ينكشف الضوء عن قلعة بها قصر شاسع ينتمى لأواخر التاريخ البيزنطى أو أوائل التاريخ العربى[٤] فالعرب الغزاة، لسوء الحظ، يصعب التعرف عليهم بواسطة رجال الآثار وتمييزهم من البيزنطيين الذين أزيحوا عن مواقعهم. فنشاط الفرسان فى غياب وجود مبانى الحصار لم يترك أثراً على الطبيعة بالإضافة إلى أنه فى وقت الغزو العربى لليبيا لم تكن هناك عملات إسلامية مميزة أو أوانى فخار إسلامية شائعة الاستعمال فى ذلك الوقت. لهذا يصعب التمييز بين موقع احتلال عربى

فى المرحلة الأولى، وبين موقع بيزنطى فى مرحلته الأخيرة، فعملة هيرقل المتوفرة جداً كانت شائعة التداول عند البيزنطيين والعرب.

وحيث لا يمكننا لهذا السبب، أن نعيد بناء مسار الحملات العربية من الشواهد الأثرية فقط، فإننا على الأقل، نستطيع أن نقوم أثرها المحتمل، ليس فقط من ناحية الدفاعات العسكرية التى كان لابد أن يحسب حسابها بل أيضاً من ناحية التركيب السياسى والدينى للسكان الذين وقعت أرضهم تحت أقدام الغزاة.

وقد يساعد هذا التقييم فى توضيح بعض الأخبار الغريبة التى وردت فى المصادر القبطية التى تؤرخ للغزو العربى لليبيا، بما فيها عبارة للمؤرخ يوحنا النيقيوسى التى يبدو من غير المحتمل أن يحرفها أو يتجاهلها المترجمون المحدثون (انظر الملحق) لأنها تلقى الضوء على الاستراتيجية الموجودة وراء اندفاع عمرو بن العاص إلى برقة ٦٤٢ ميلادية .

الحملة الأولى لاتحاد المدن الخمس (صيف ٦٤٢) :

من المعقول أن نفترض، كما فعل المعلقون، أن أول حملة عربية إلى اتحاد المدن الخمس لم تتحرك قبل استيلاء العرب على الإسكندرية (فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤٢) والشك الوحيد هو فيما إذا كان عمرو بن العاص قد انتظر حتى

جلاء البيزنطيين عن الإسكندرية (فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢) قبل أن يتحرك إلى الغرب. ويتمسك بتلر بوجهة النظر القائلة بأن الاستيلاء الكامل على الإسكندرية كان خطوة لابد منها قبل غزوة البنتابوليس [٧] وكيتانى [٨] وبالنسية لنا فقد افترضنا أن الحملة قد تمت فى صيف ٦٤٢م بينما العرب كانوا لايزالون فى انتظار تسليم المدينة لهم .

هذه النظرة الأخيرة تبدو بالطبع أكثر احتمالاً لأن عمرو بن العاص، على فرض أنه حصل على معلومات كافية عن الأحوال الجوية فى شرق ليبيا، قد اختار بالتأكيد أن يوجه ضربته قبل موسم سقوط أمطار الشتاء الذى يبدأ فى شهر نوفمبر. فحرارة الصيف لم تكن عائقاً أمام الفرسان العرب الأشداء مثل ما كانت أوحال الشتاء ومياه الوديان التى كان من الممكن أن تقف عائقاً أمام تقدمهم. وبالنسبة لحاجتهم من المياه ففى الأقاليم الساحلية تتوفر عادة كثير من الخزانات التى تحتوى على ماء حتى زمن الصيف حيث تختزن بداخلها بقية من أمطار الشتاء السابق.

والمصادر العربية التى تذكر هذه الحملة لا تعطى أية تفاصيل عن طريقة تسييرها. وأكمل المصادر التي يمكن الاعتماد عليها هو بن عبد الحكم (فى القرن التاسع الميلادى) [٩].

فبعد أن يقرر هذا المؤرخ أن بربر اللواتاح قد احتلوا أناتابوليس أو البنتابوليس أو برقة منذ وقت طويل يضيف قائلا " والآن دخل عمرو بن العاص البلاد ووصل بفرسانه إلى برقة وعقد مع سكانها معاهدة وافقوا بمقتضاها على دفع ١٣٠٠٠ أى (ثلاثة عشر ألف دينارا) جزية سنوية مع شرط يسمح لهم بأن يبيعوا أولادهم لدفع الجزية" .

وهناك مصدر ثان [١٠] يذكر أن العرب قد حاصروا هذه المدينة لبعض الوقت قبل أن يتم عقد هذه المعاهدة، وواضح أن جميع المصادر تتفق على أن الجزية السنوية كانت تدفع تبعاً لذلك بانتظام، ولم يتطلب الأمر إرسال جامعى الجزية أبداً إلى برقة، ونتيجة لذلك اعتبر هؤلاء السكان أكرم الشعوب وأكثرها ميلاً للسلام.

وعلى الجانب القبطى الذى يجب أن يكون محل اعتبارنا الآن، نجد أن المؤرخ يوحنا النيقيوسى يشير باختصار إلى غزو البنتابوليس، لكنه لا يعطى أى إشارة إلى مدينة برقة أو إلى معاهدة السلام التى وقعت بين العرب والبربر. والواقع ان هذا المصدر التاريخى الذى ترجم ترجمة حرفية من اللغة الحبشية (هو المصدر الوحيد لدينا الآن) يعطى تقريرا مختلفاً جداً عن هذه الحملة .

"إن عمرو بن العاص قهر مصر، وأرسل يطلب سكانها ليحاربوا سكان البنتابوليس، لكنه بعد أن حقق النصر، لم يسمح للمصريين بالبقاء هناك. ثم أخذ من هذا القطر الغنائم والأسرى بأعداد كبيرة."

أما أبوليناروس حاكم البنتابوليس فقد انسحب بقواته مع أثرياء الإقليم إلى مدينة دوشيرا أو تشويرا، بعد أن حصن أسوارها تحصيناً قوياً وأغلق أبوابها، لذلك عاد المسلمون إلى بلدهم بالغنائم والأسرى.

هذه القصة تأتى فى التسجيل التاريخى مباشرة قبل ذكر وفاة البطريرك ساويرس (مارس ٦٤٢) لكننا لا نستبعد أن تكون هذه الحملة قد تمت فعلاً بعد ذلك بعدة شهور في فصل الصيف. والجدير بالملاحظة أن يوحنا النيقيوس يلمح إلى أن المصريين الأقباط قد أرسلوا ألى البنتابوليس لمعاونة الحملة، لكنهم حرموا من ثمار النصر الذى تحقق نتيجة تعاونهم مع العرب الذين احتفظوا لأنفسهم بكل الغنائم والأسرى .

وعلى الرغم من الانتصار الأول الذى أشار إليه يوحنا النيقيوسى فإن البيزنطيين لم يهزموا تماماً بل ظلوا مسيطرين على توشيرا وربما على بعض الأماكن الأخرى البعيدة فى الغرب وقد ظل خطر وصول التعزيزات البيزنطية براً عن طريق طرابلس أو البحر عن طريق كريت والقسطنطينية حتى تم القضاء نهائياً عليهم. وانتهى الاحتمال الأول بالاندفاع العربى الخاطف نحو

طرابلس فى سنة ٦٤٣، وتعطل الاحتمال الأخير بحملة ثانية إلى البنتابوليس ويبدو أنها تمت فى ٦٤٤ م أو ٦٤٥م .

الحملة الثانية : (٦٤٤ – ٦٤٥ ميلادية)

لا تذكر المصادر العربية أى شيء عن هذه الحملة ونحن نعلم بها من فقرة فى "تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية الذى ينسب عادة إلى الأسقف ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر الميلادى) والذى يجسد لنا بعض أجزاء السجل التاريخى المبكر الذى وضعه أبو جورج أرشيدياكون وسكرتير البطريرك سيمون (٦٨٩ – ٧٠١) على جبل القديس مكاريوس بوادى حبيب .

ويقرر المصدر التاريخى [١٣] أن عمرو بن العاص قد رتب الأمر مع االشماس سانوطيوس (الذى سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل) لكى يتخذ الترتيبات اللازمة لدعوة البطريرك القبطى بنيامين الذى ظل مختفياً مدة طويلة نتيجة لعمليات القمع ضد العقيدة الأرثوذكسية. وفى أول لقاء لهما خاطب عمرو البطريرك قائلاً :

"استأنف حكم كنائسك كلها ورعاية شعبك، وإن شئت فصلى من أجلى حتى اذهب غرباً إلى البنتابوليس وأستولى عليها كما استوليت على مصر وأعود سالماً وسريعاً." ثم صلى الأب القديس بنيامين لعمرو وألقى خطبة بليغة بهذه

المناسبة. بعد ذلك زحف عمرو خارجاً من الإسكندرية وزحف معه سانوطيوس محب المسيح .

وتستمر القصة فتشير إلى وقوع بعض المعجزات فعندما أوشكت سفن المؤن التابعة للحملة أن تتحرك من الإسكندرية فإن السفينة التى ركبها سانوطيوس نفسه رفضت أن تبحر لأن قائدها قد أحضر خلسة رأس القديس مرقس، المسروق من قبره الذى تحطم وفتح أثناء غزو الإسكندرية فأوقف سانوطيوس السفينة التى يركبها القائد عمرو وعاد ليفتش سفينته هو، ووجدت رأس القديس التى أعيدت إلى القبر (رتب سانوطيوس أن تسترد على نفقته) ثم تحرك الأسطول فى طريقه دون صعوبة تذكر.

وعلى الرغم من هذه المعجزة فليس هناك من الأسباب ما يدعونا للتقليل من جوهر الحقيقة التاريخية لهذه القصة (فإعادة بناء مزار القديس مرقس لابد أن يكون قد تم بناء على ذكرى معينة قد اقترنت فى تاريخ الكنيسة القبطية بشخصية ما وبمناسبة ما) وشخصية سانوطيوس كما نرى شخصة تاريخية ولو صح أن عمرو احتاج فعلاً لاستخدام السفن، فمن الضرورى أنه احتاج لقبطى لقيادتها. أضف إلى ذلك أن بنيامين قد عاد من المنفى الذى استمر ١٣ عاماً فى خريف ٦٤٤م. فهذه الحملة إذن لا يمكن أن يختلط أمرها بالحملة التى وقعت فى ٦٤٢ م كما أوضحنا سابقاً.

هامش:

١- يشير بتلر (١١) إلى حملة ثانية إلى البنتابوليس وقعت فى عام ٢٥ هجرية وربما كان يقصد غارة الفرسان التى اتجهت إلى المغرب فى تلك السنة بواسطة عبد الله بن سعد بن أبى السرح (١٢) لكن اهتمامنا ينصب هنا على حملة مدعمة من البحر خرجت من الإسكندرية التى لابد أنها تركت الإسكندرية قبل إعادة فتحها لفترة قصيرة التي قام بها ما ينول فى أوائل ٢٥ هجرية.

هامش:

– فى عام ١٩٧٩ كنت أعمل فى مدينة بنغازى وفى ذلك الوقت قدم لى الأب بنيامين راعى كنيسة بنغازى القبطية هذا النص باللغة الإنجليزية وطلب منى ترجمته وأعطيته الترجمة واحتفظت لنفسى بهذه النسخة .

٣ - كتاب : كيرياليسون

هذا هو عنوان الكتاب الرائع الذى ألفه الأستاذ حمدى رزق وصدر عن دار روز اليوسف، وكلمة كيرياليسون عبارة قبطية معناها "يارب أرحمنا" يقولها المسلم بلغته المعتادة ويقولها المسيحى بهذه اللغة. فنحن جميعا نردد دعاء واحدا فى طلب الرحمة ومن ثم فإن حمدى رزق يبدأ كتابه بأحد الخيوط الروحية التى تربط بين المسلمين والمسيجيين وتؤكد وحدتهم أيضا، فنحن من أصل واحد كما يؤكد عالمنا الجليل الدكتور وسيم السيسى بأن جينات المصريين جميعا واحدة. وبناء عليه فإن محبة حمدى رزق ليست للقبط فقط، بل لأهل مصر جميعاً .

وهى محبة صادقة تتجلى فى كل سطر يكتبه حمدى رزق فى هذا الكتاب، وسوف تترك هذه المحبة صداها فى نفوس الغالبية من أبناء مصر الطيبيين، وسوف يكون أثرها برداً وسلاماً على هذه الأرض الطيبة التى نعشقها جميعا. وقد أتاح له ذلك الحب قدرا كبيرا من الجرأة فى نقد الأخطاء وتسمية الأشياء بأسمائها الحقيقة، بل تسمية الأشخاص وبعض القيادات الدينية والسياسية دون تردد. ورغم قسوة النقد أحيانا إلا أنه نقد موضوعى صادر عن عقلانية لا تعرف تلوين الكلمات أو تمييع المواقف، وهى الأساليب السائدة فى لغة المسئولين عامة، مما أدى إلى ضياع الحقائق وتفشى الجهل والفساد، وتلويث

عقول العامة وتشويه وجه مصر بالطغيان والإرهاب، ولم تترك مكانا للشفافية التى تنير الطريق لكل من يريد أن يضع لبنة فى صرح هذا الوطن.

وهنا أبادر وأقول إنه لا يمكن لأى باحث أو مؤرخ جاد أن يتجاهل هذه العوامل المحزنة التى أدت إلى تدهور الأحوال المعيشية للمصريين جميعا فى هذه الأيام .

لقد دخل المؤلف إلى موضوعه من خلال حديث المشاعر الشخصية والصداقة الحميمة التى ربطت بينه وبين زميله ألبير منذ الصغر فى "مدرسة الأقباط الإبتدائية" بعزبة النصارى حيث نشأ كلاهما فى جو يفيض بالحب من جانب الحاج احمد مدرس اللغة العربية الذى كان يخشى على ألبير من برودة طوبة لو خرج من الفصل فى حصة الدين، ويقول لتلاميذه "حب لأخيك ماتحبه لنفسك" كانت المدرسة فى حضن الكنيسة ولم يثر ذلك حساسية أحد من المسلمين. وكانت محبة راع الكنيسة للحاج أحمد والمودة اتى تربطهما مثالا راقيا لرجال التربية والتعليم، هذا الجو الأبوى الحانى هو الذى نما الصداقة القوية فى نفوس حمدى وألبير وزملائهما فى ذلك الجيل. وكان تبادل الزيارات المنزلية للأولاد عاملا مؤثرا فى هذه الصداقة والمؤلف يشير إلى الأطايب التى

وطنى ٤ مارس ٢٠١٨.

كانت تجيد صنعها الست أم ألبير فى الأعياد المسيحية، وكانا يتلذذان بالتهامها بشهية مفتوحة .

امتدت هذه الصداقة إلى كثيرين من الأقباط بل وإلى كبار رجال الكنيسة القبطية، مثل البابا كيرلس والبابا شنودة والبابا تواضروس الثانى والأنبا موسى أسقف الشباب الذى دعاه يوما ليلتقى بشباب الكنيسة ويتحدث معهم، فحمدى حين يتكلم عن هذه القيادات الكنسية وعن دورها فى تلقى الصدمات وتخفيف أثرها على أبناء الكنيسة، فإنه يتكلم من خلال معرفة صحيحة ومخالطة فعلية لهم. وهذا ما يعطى كتابه قيمة عالية .

كذلك لم يتردد الكاتب فى توجيه النقد لبعض رجال الكنيسة وللبابا تواضروس الثانى لموقفه من المتظاهرين الذين يطالبون بفرصة للجلوس معه وسماع شكاواهم، وكذلك نقده للقرارات الكنسية المجحفة بحق كثير من الرجال والنساء ضحايا قوانين الأحوال الشخصية، وهو نقد بناء صادر عن روح المحبة والحرص على مصالح أبناء الكنيسة وسلامهم روحيا واجتماعيا.

ولاينسى حمدى أن يشير إلى تعاون كثير من عقلاء المسلمين وبعض رجال الأزهر مع رجال الكنيسة من أجل هزيمة الإرهاب والقضاء على أسباب الفتنة الطائفية، لكنه لا يتجاهل البطء من جانب الشيخ أحمد الطيب فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتطهير جامعة الأزهر من أعضاء التدريس المتطرفين أمثال

محمد عمارة وغيره وتنقية مناهج الدراسة بالأزهر من المواد التى تحض على كراهية الآخر إنقاذا للشباب وحمايتهم من الفتن التى تضللهم باسم الدين ومحاربة الكفر.

ويشتد الكاتب فى التنديد بجرائم الإخوان والسلفيين البشعة بحق المسيحيين كتفجير كنيسة القديسين والكنيسة البطرسية وكنيسة طنطا وقتل العشرات من المسيحيين الأبرياء. ورغم اشارته الى دور الرئيس عبد الفتاح السيسى ومحاولاته الدءوبة لتضميد جراح المسيحيين وتخفيف أحزانهم سواء عن طريق الضربة الجوية التى وجهها الطيران المصرى للإرهابيين فى ليبيا انتقاما لذبحهم واحد وعشرين عاملاً قبطياً أو عن طريق زياراته المتكررة للكنيسة فى عيد الميلاد كل عام وإقامة للكاتدرائية الكبرى فى العاصمة الجديدة. إلا أنه لا يتهاون فى نقده للمؤسسات الأمنية وبعض المحافظين وتراخيهم فى تطبيق القانون، وانصياعهم لأوامر الأرهابيين فى موقفهم الرافض لبناء الكنائس ووضع الشروط الظالمة وفرضها على الضحايا من المسيحين عن طريق المجالس العرفية.

وأسمحوا لى أن أكون صريحا أكثر وأقول إن كتاب حمدى رزق هو مساهمة قوية فى تجديد الخطاب الدينى الإسلامى لأنه يقوم بعملية تعريف بأقباط مصر لأحبائنا المسلمين الذين لم يحرصوا على معرفة كتبنا ومبادىء ديننا كما نحرص نحن على دراسة كتبهم وفهم ممارساتهم الدينية. فالإنسان عدو ما

يجهل. وهذه الجهالة هى التى أدت إلى تقبل الكثيرين لخطاب الكراهية ضد الأقباط والاندفاع المحموم للإعتداء عليهم، هذه المشكلة التى شخصها الدكتور فؤاد عبد المنعم رياض القاضى الدولى بدقة فى رسالته حيث يقول :

"الإنسان عدو ما يجهل، والمسلم لا مرجعية له سوى معلومات مشوهة عن المواطن القبطى نجمت عن الخطاب الدينى المضلل المتعصب خلال العقود الماضية. وعن تجاهل كافة وسائل التعليم والإعلام حتى الآن لتاريخ الأقباط وحضارتهم كمصريين أصلاء، مما جعل المواطن المسلم ينظر للمواطن القبطى كغريب أو كضيف ثقيل على أرض الوطن. ولا تزال أغلبية أبناء مصر من المسلمين غير واعين بأن شعب مصر ظل قبطيا خلال عدة قرون قبل الفتح الإسلامى وبعده. ومن ثم فإن الشعب المصرى الحالى هو فى أغلبيته العظمى من سلالة الشعب القبطى.

ومما أدى إلى استفحال الأمر إقصاء الدولة للمسيحيين من غالبية الوظائف السياسية والمناصب العليا كالمحافظين ورؤساء الجامعات وكافة القيادات. وكذلك عدم سماح المؤسسات المختلفة من ثقافية وفنية ورياضية للمسيحيين من قيادتها بل ومن مجرد وجود مسيحيين فى ساحاتها".

ورسالة الدكتور فؤاد تشدد على ضرورة أن يتم التغيير الجذرى بأمانة وشجاعة لكل ما أدى إلى تمزيق هذا الوطن. وقد نشرت هذه الرسالة فى خضم

المعركة التى اشتعلت حول قرار الدكتور جابر نصار بإلغاء خانة الديانة من المحررات الرسمية فى جامعة القاهرة .

وهو قرار شجاع يفتح الطريق إلى عصر جديد للتنوير فى مصر. وكانت رسالة الدكتور عبد المنعم رياض بعنوان شديد السخرية هو "إلغاء خانة الديانة من العقول" قبل أن تلغى من الأوراق .

ومن حسن الحظ أن تأتى وثيقة التنوير الذى أطلقها الدكتور محمد عثمان الخشت رئيس جامعة القاهرة الجديد لترسم خطوطا واضحة للسير فى طريق التحرر العقلى والتنوير. وقد شكل لها الدكتور الخشت مجلسا يضم شخصيات عامة وثقافية وفكرية مرموقة، سعيا إلى تحويل جامعة القاهرة الى جامعة من الجيل الثالث، تجمع بين التعليم والبحث العلمى وتوظيف المعرفة فى عملية التنمية الشاملة للدولة الوطنية، بوصفها تنمية ثقافية وعلمية واقتصادية واجتماعية، مع استعادة فكر المؤسسين للجامعة فى التنوير والعقلانية والتعددية.

شكراً أستاذ حمدى رزق على هذه السباحة الممتعة فى سجل حافل بالأحزان.

نشر بجريدة وطنى فى ٤ مارس ٢٠١٨

الفصل الخامس

حول التعديلات الدستورية

١ - مصدر التناقضات فى مواد الدستور

المادة الثانية من الدستور هى مصدر التناقضات الواضحة فى معظم التشريعات المصرية، ويؤسفنى أن أقول إنها أشبه بحائط الفصل العنصرى بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، بل وبين المسلمين بعضهم بعضا .

والأدهى من ذلك، أن الذين يدافعون عن هذه المادة من أعضاء لجنة الصياغة فى مجلس الشعب، يعرفون ذلك جيدا، ويعرفون أيضا أن هذه المادة تتناقض مع الإعلان العالمى لحقوق الانسان ومع المواثيق الدولية التى وقعت عليها مصر، ولا يجرؤون على الجهر بذلك، ثم يلجأون الى تصريحات غريبة من أجل التضليل والتبرير. لأن معظم هؤلاء لاتنقصهم المعرفة بحكم أنهم درسوا القانون والنظم السياسية بل وتعلموا فى فرنسا التى تعلم فيها الطهطاوى وطه حسين وغيرهما ممن استناروا وأناروا الفكر فى حياة مصر فترات طويلة .

ولكن الفرق بين هؤلاء وبين الرواد أن رفاعة الطهطاوى كانت له رسالة استمات فى سبيل تحقيقها حتى نفى الى السودان. وكذلك أخذ طه حسين موقف التحدى الصارخ ضد التخلف والمتخلفين ولم يبال بما تعرض له من

نشر بجريدة وطنى فى ٨ مارس ٢٠٠٧

أهوال لأنه كان يؤمن بالوطن وبأن له رسالة لابد أن يدافع عنها. فما بالك بالشيخ على عبد الرازق الذى تحدى الملك فؤاد الذى كان يسعى للخلافة، وقال إنها ليست من الدين. لكن هذه الفئة من ترزية القوانين فلا هم لهم سوى ارضاء الحاكم والدهماء حتى يستمروا فى مواقعهم، دون تفكير فى عواقب هذا المنهج وما سيجلبه على هذا الوطن من خراب ودمار. فالدستور هو صمام الآمان لوحدة هذا الشعب وتماسكه فى وجه العواصف. ولابد للدستور أن يعبر بحق عن طموحات أمة عريقة سبقت جميع الأمم فى ارساء الأسس الأخلاقية وفى بناء الحضارة .

وفى ضوء هذا الواقع المحزن، فقد كنا نتوقع أن تأتى المبادرة والحسم من جانب الرئيس حسنى مبارك، فيخطو بنا خطوة تاريخية تحسب له فيطلب إلغاء المادة الثانية من الدستور أو – على الأقل – إعادتها الى صياغتها الأولى قبل ١٩٧١، التى كانت تنص على أن "مبادىء الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر التشريع" .

أما الابقاء على المادة الثانية بوضعها الحالى الذى ينص على أن "الاسلام دين الدولة وأن مبادىء الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع" ففى ظل تغول الأصوليين والمتعصبين وشراستهم يمكن اتخاذها مبررا لقلب التشريعات وتحقيق مآربهم فى إقامة الدولة الدينية .

لأن عبارة "المصدر الرئيسى للتشريع" تجعل الشريعة الاسلامية هى المعيار الوحيد لقبول أو رفض أى مصدر من مصادر التشريع الأخرى حسب ما يرى القائمون على التشريع بحكم انتماءاتهم الدينية والسياسية. بما يعنى وضع مصير الشعب كله تحت رحمة فئة من الفقهاء ورجال الفتوى المتعصبين، وهو ما يعرض مصير الوطن للأهواء. ونتيجة لما رأيناه من تجربة العقود الثلاثة الماضية من تجريح للمسيحية والمسيحيين ومن عدوان على أرواحهم وأملاكهم واقصائهم عن المناصب القيادية بتشجيع من أجهزة الدولة، فإن الاصرار على إبقاء هذه المادة بصورتها الحالية لا يبشر بأى اصلاح حقيقى .

وإذا كان بعض المدافعين عن هذه المادة الذين تأخذهم نشوة العنصرية الدينية يتصورون أن هذه المادة سوف تضمن لهم التفوق والاستعلاء على الأقباط مثلا واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، فإنى أقول لهم إنهم خاسرون. لأن السادات أراد بهذه المادة أن يقسم المسلمين الى طائفتين: مؤمنين وكفرة، وأن يحارب خصومه السياسيين من الشيوعيين والناصرين باسم الدين، وقال قولته الشهيرة "أنا رئيس مسلم لدولة مسلمة" وفى ظرف أسابيع قليلة لقى السادات مصرعه على أيدى بعض المؤمنين من أمثاله. والعبرة لمن يعتبر .

وحسبى أن أشير هنا الى المقال البليغ الذى كتبه الشاعر الكبير الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى فى حديثه حول المادة الثانية حيث ختمه بالفقرة التالية: "هناك من يظن أن المواطنة تهم المسيحيين وحدهم، لأنها تحميهم من الاضطهاد، والحقيقة أن المواطنة تهم المصريين جميعا المسلمين قبل المسيحيين، لأنها إن كانت تحمى المسيحيين من الاضطهاد فهى تحمى المسلمين من الانقراض".

(الأهرام –٢٤ يناير ٢٠٠٧)

وقد أثبت قادة الحزب الوطنى ومفكروه تعصبهم ونزعتهم الطائفية البغيضة فى تقريرهم حول التعديلات الدستورية وتجاهلهم لما دعا إليه الرئيس من تمكين المرأة والأقباط من حقوقهم فى مختلف مناحى الحياة، فإذا بهم يجمعون على ضرورة تمكين المرأة ويرفضون ذلك بالنسبة للأقباط بناء على حجج سخيفة وصفها المناضل الشجاع والشريف الدكتور رفعت السعيد فى حواره معهم بحجج (سائلة) حيث قال البعض منهم "إن تمكين الأقباط لايأتى إلا عبر حراك ثقافى وتغيير فى المناخ وتمادى البعض الآخر فى القول بأن هذه المطالبة تكرس الثقافة الطائفية . "

(الأهرام – هوامش على بدايات الحوار –١٢ يناير ٢٠٧)

ولا نملك إزاء هذه الأقوال الغريبة إلا أن نقول لهم **إذا لم تستح أفعل ماشئت** وانا أسألهم من الذى يكرس الطائفية الآن؛ الأغلبية أم الأقلية؟ من الذى أفسد الثقافة والتعليم وخلق مناخ التعصب الدينى؟ اليس هو تليفزيون الحزب الوطنى وإذاعاته وجرائده، منذ أن وضع السادات الأسلحة والخناجر فى أيدى الجماعات الدينية وحرضهم على ضرب خصومه السياسيين من اليساريين والناصريين والأقباط. فمن المسئول عن الحراك الثقافى؟ أليس هذا هو واجبكم أنتم بالدرجة الأولى وأنتم تتصدرون الحكم والتشريع؟ هل يملك الأقباط قناة تلفزيونية حتى تطالبونهم باحداث هذا الحراك الثقافى؟ وكيف يمكن تغيير هذا المناخ الثقافى الردىء ونشر روح التسامح وقبول الأخر دون أن يستند ذلك الى أساس فى الدستور ؟

من هنا تبدو خطورة المادة الثانية التى لا تقل عن خطورة حائط الفصل العنصرى الذى أقامته اسرائيل فى فلسطين. لأن حائط اسرائيل هو حاجز مادى يمكن إزالته فى أى وقت دون أن يترك وراءه أثرا، أما المادة الثانية فتأثيرها نفسى واجتماعى يمتد الى أجيال وقد يؤدى الى مآسى تصيب حياة الوطن فى الصميم. وهذه الخطورة ليست فقط فى اعتبارها العشرة ملايين مسيحى مواطنين من الدرجة الثانية بل فى تسليطها بعض المسلمين على بعض، وإيقاع الفتنة والتنازع بين أبناء الوطن الواحد كما حدث أيام السادات. لأن هذه المادة أدت

وسوف تؤدى الى التناقض فى التشريعات وفى أحكام المحاكم والهيئات القضائية كما حدث فى الفترة الأخيرة وإليكم الأمثلة :

المثل الأول : فى الحكم بتطليق الدكتور نصر حامد أبو زيد من زوجته الأستاذة الجامعية على الرغم من أن أحدا من الزوجين لم يطلب ذلك ولم يذهب للمحكمة. ولم يكن أمام القاضى أى نص قانونى يجيز له اصدار الحكم بالتفريق بينهما سوى الادعاء بأن نصر أبو زيد خرج عن حدود المعلوم من الدين فى أبحاثه العلمية، فحكم القاضى استنادا إلى تفسيره الخاص لهذه المادة التى تقول إن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع. لقد تحول القاضى الى مشرع وقاضى فى الوقت نفسه وحكم. ولم يجرؤ أحد على مراجعة الحكم، لأنه استند الى الدستور الذى يعلو على كل القوانين .

وبناء عليه فإنه فى حالة بقاء هذه المادة كما هى يمكن لأى متعصب أن يطالب بتطليق أى كاتب من زوجته بحجة أن أراءه المنشورة تخالف الشريعة الاسلامية، وبين ليلة وضحاها يجد المسكين نفسه محروما من زوجته وأولاده إلا إذا امكنه الهجرة الى بلاد الفرنجة كما فعل الدكتور نصر حامد أبو زيد .

أما المثل الثانى : الذى يثبت التناقض فى بنية الدستور والقوانين فقد أشار إليه الأستاذ فهمى هويدى فى الأهرام (٢٣ يناير ٢٠٧) بخصوص التقرير الذى قدمته هيئة مفوضى الدولة عام ١٩٩١، وقصة التقرير كما يرويها فهمى

هويدى، أن أحد الدعاة (السيد يوسف البدرى) تقدم لتأسيس حزب باسم الصحوة، ولكن لجنة الأحزاب رفضت طلبه. فطعن فى القرار أمام مجلس الدولة عام ١٩٩٨ .

وحين عرض الموضوع على هيئة المفوضين التى كان يرأسها وقتذاك نائب رئيس المجلس المستشار طارق البشرى فإنها خلصت من بحثه الى أن "الدستور حين يقر فى صدر أحكامه باسلامية الدولة ويقر بالشريعة الاسلامية كأصل للشرعية – كما ذكر فى تقرير المفوضين – فلا يصح فى الأفهام القول بأن الدستور ينظم وضعاً طائفياً لأن الدستور هو أول تعبير تشريعى عن الأصول المرجعية للمجتمع. وإذا كانت الاسلامية لا تعبر فى الدستور عن وضع طائفى فإن ماورد فى قانون الأحزاب من حظر قيام الحزب على أساس طائفى (أو غيره) لا يشكل حظراً متعلقاً بالدعوة الاسلامية للمجتمع أو الدولة المنصوص عليه والمقرر بالدستور ذلك أنه لايصح بأى معيار أن يمنع قانون الأحزاب ما أوصت به وأرشدت أحكام الدستور." ثم يضيف:

" إن قانون الأحزاب الذى حظر قيامها على أسس طائفية أو طبقية نص أيضاً (فى مادته الرابعة) على ألا تعارض مبادىء الحزب وأهدافه مبادىء الشريعة الاسلامية التى هى المصدر الرئيسى للتشريع . ولا يصح فى العقول

أن يحظر القانون الأمر ونقيضه. فيحظر التعارض مع الشريعة الاسلامية ويحظر الدعوة الى نظم يستخلص منها أو يحظر الدعوة الى تطبيقها ."

ومعنى هذا أن هذه المادة لا تحظر قيام حزب اسلامى وإنما تمنع قيام حزب مسيحى. ومن هنا لابد من إضافة عبارة الى هذه المادة تقول " **حظر قيام أحزاب طائفية اسلامية أو مسيحية على أساس الدين** "

وبصرف النظر عما يحتويه هذا التقرير من تناقض حين يقول إن وجود المادة الثانية فى الدستور لا تنظم وضعاً طائفياً، فهو قول خاطىء تماما لا يقبله أى قارىء للفكر السياسى أو القانونى إلا إذا قرر أن يتجاهل أن خمس الشعب المصرى من المسيحيين؟ لكنه تفسير المستشار طارق البشرى الذى بدأ حياته مفكرا اليبراليا ثم تحول بعد السبعينيات الى أصولى مدافع عن مطالب الأصوليين .

ومع ذلك فإن تقريره على جانب كبير من الأهمية لأنه يثبت وجود التناقض بين مواد الدستور ذاته: بين النص على" أن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع " وبين المواد التى تحظر قيام أحزاب دينية. فإذا كان هذا التقرير لم يتحول الى حكم نافذ المفعول لأن الحزب الوطنى وحكومته كان فى وضع يضمن لهما إبطال مفعول مثل هذا التقرير فإن التغير الذى حدث نتيجة دخول الآخوان الى مجلس الشعب بهذا العدد الكبير واختراقهم لمعظم أجهزة

السلطة، سوف يمكنهم من تحقيق أهدافهم وإقامة حزب اسلامى طالما بقيت المادة الثانية فى الدستور بوضعها الحالى. والبوادر واضحة على امكانية تحقيق ذلك .

ولنأخذ واقعة الحجاب مثلا، حيث سجل مائتان وخمسون عضوا من أعضاء المجلس الموقر حضورهم فى التهجم على وزير الثقافة وذبحه من أجل رأى نسب إليه فى إحدى الصحف. ورغم أن فاروق حسنى من أقدر وزراء هذه الحكومة على الابتكار والإنجاز فى اختصاصات وزارته فلم يشفع له ذلك. فقد خصص رئيس المجلس جلسة كاملة لمحاكمة الوزير على رأى شخصى نطق به حول حجاب المرأة. وبصرف النظر عما نال المجلس من نقد وسخرية، بل وأيضا ما قاله مرشد الأخوان الذى وصف الجلسة بأنهأ حفلة تهريج إلا ان الجانب المحزن فيها أنها أكدت بما لا يدعو مجالاً الى الشك بأن الأخوان المسلمين يسيطرون ويتحكمون فكرياً فى الغالبية العظمى من أعضاء المجلس بما فيهم أعضاء الحزب الوطنى، الذى أثبت أنه هيكل فارغ لا تحكمه نظرية فكرية ولا إطار حزبى ينظم حركة أعضائه سواء فى داخل المجلس أو فى المجالات الأخرى .

إن المهمة الأساسية لمجلس الشعب هى التشريع والرقابة أى وضع القوانين والرقابة على أعمال السلطة التنفيذية التى تقوم بتطبيق هذه القوانين، وليس من

سلطته محاسبة الناس على أرائهم. فالمفروض أن يكون المجلس هو الداعم والحامى لحرية الرأى. لكن الذى حدث فى تلك الجلسة الغريبة كان على العكس تماما. وكان مناقضا لكل التقاليد البرلمانية فى الدول الديموقراطية المحترمة. لكنه كان يستند أيضاً الى المادة الثانية التى تقول أن الاسلام دين الدولة وأن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .

وهكذا، فما الذى يمنع –حياكم الله – أن يتكرر هذا الموقف وتجمع الآغلبية على تطبيق العقوبات الدينية الاسلامية برجم الزانى وقطع يد السارق وحرمان المرأة من حق التعليم والعمل، وقتل المرتد وفرض الجزية على الأقباط. وهذا كل مايريده دعاة الشريعة الأشاوس من هذه المادة. ولو كان لهم نوايا خيرة أو مطالب نافعة لقبلوا فى تواضع المؤمنين ووداعتهم بالانضمام الى غالبية أفراد الشعب المصرى وأكدوا على وحدته الوطنية وعلى حق الجميع فى المساواة الكاملة على أساس المواطنة .

إن بقاء المادة الثانية بوضعها الحالى الذى قرره السادات فإنما يعنى شيئا واحدا هو تكريس الطائفية الدينية والمذهبية أيضاً. ففى مصر ذات الغالبية السنية، يمكن وضع التشريعات التى تميز بين المسلم السنى والمسلم الشيعى فيعامل معاملة المسيحى باعتباره مواطناً من الدرجة الثانية، اما البهائى وأصحاب المذاهب الأخرى فهم مرتدون أو كفرة ويطبق عليهم حد الردة. ولعل

مايحدث كل يوم فى العراق وفى فلسطين وفى السودان والصومال بدرجات متفاوته نتيجة هذه التفرقة يكشف لنا أن النار ليست بعيدة عنا .

فإذا كان حرص الرئيس حسنى مبارك على الاستقرار هو الذى يدعوه الى التدرج فى عملية الاصلاح وبالتالى يمنعه من طلب إلغاء هذه المادة، فلا بأس أن يطلب إعادتها الى صيغتها الأصلية قبل ١٩٧١، التى تنص على "ان الاسلام دين الدولة وأن الشريعة الاسلامية هى إحدى مصادر التشريع". وبهذا تنفتح الطريق أمام التطور الديموقراطى الصحيح الذى يضمن حرية البحث العلمى وحرية التعبير ويحفز المواطنين جميعا على الاسهام والمشاركة باخلاص فى خدمة هذا الشعب وحماية وحدته الوطنية .

وفى هذا السياق يحضرنى قول الدكتور فتحى سرور فى نقابة الصحفيين السودانية "إن مصر دولة قانون، والكلمة فيها للدستور، وليست للمسجد أو الكنيسة، ولكن القول الأجمل له هو أن "الاسلام فوق الدستور" وهذا حق. فالاسلام كدين وعقيدة ينبغى أن يكون فوق الدستور وفوق جميع القوانين البشرية التى تتطلب الحوار والاختلاف، وأن يكون مكانه الحقيقى فى قلوب المؤمنين به وفى ضمائرهم التى ترفض الكذب والغش والظلم والفساد وتسوى بين الناس جميعا دون تفرقة على أساس الجنس أو الدين أو العرق. هنا يعلوا الاسلام ويزدهر الإيمان الحقيقى بعيداً عن النفاق والرياء وتأليه الحاكم. ومن

أجل هذا فإننا ندعو الى دستور دولة مدنية يضمن المساواة للجميع فى مجتمع ينزه الدين عن مجالات التفاخر أو الاستعلاء والمتاجرة .

إن إدخال الدين فى السياسة هو ظلم للدين وظلم للسياسة. وقد عانت الأمة العربية ألأمرين من هذا الخلط وما زالت تعانى والشواهد ماثلة فى مئات القتلى الذين يفقدون أرواحهم كل يوم. فلماذا لا نتعلم من تجارب الدول التى سبقتنا فى التقدم والعمران، ولماذا نصر على تكرار تجاربنا الفاشلة ؟

لقد عاشت أوربا هذه التجارب الحزينة فى العصور الوسطى، لكن الأوربيون استطاعوا فى لحظة حاسمة أن يخوضوا تجربة الاصلاح الدينى بنجاح وأن يجتازوا عصور التخلف عن طريق قطع الصلة بين السياسة والدين نهائيا، فانطلقوا فى طريق التقدم : تحرر البحث العلمى من سلطة الكنيسة، وتحررت العقول فى كل مجالات الحياة وهكذا. وصار الأساس "اعطوا ماالله لله وما لقيصر لقيصر". أى الفصل بين المؤسسات المدنية وبين المؤسسة الدينية فصلا كاملا .

وإذا كان هذا يفسر سر تقدم الغرب، فإنه كاف بنفس الدرجة لتفسير سر تخلف العرب وتقهقر الحضارة العربية الاسلامية بعد أن بلغت ذروة من ذرى التقدم العلمى والانفتاح الفكرى والانسانى .

٢- فهمى هويدى ومجتمع المادة الثانية

اعتدت أن أقرأ مقالات الأستاذ فهمى هويدى باهتمام شديد لأنها كثيرا ما تتسم بالجدية والميل الى الموضوعية وكذلك بالشجاعة فى النقد وفى الحديث عن المسكوت عنه. ولا أنسى للأستاذ فهمى هويدى موقفه المشرف فى الاحتجاج على مذبحة الكشح التى راح ضحيتها اثنان وعشرون مسيحيا، وكتب مقاله الفريد الذى يعتذر فيه عن هذه الجريمة البشعة نيابة عن الأغلبية المسلمة ويحملها تبعة هذه الجريمة. وهو موقف شريف وشجاع لم يشاركه فيه أحد من المسئولين عن تحرير الأهرام الذين رفضوا نشر المقال مما اضطره أن ينشر المقال فى جريدة الأهالى. وقد انتقد فيه بشدة موقف كثير من الجهات المسئولة عن تدهور العلاقة بين المسلمين والمسيحيين الى هذه الدرجة، كما انتقد فيه أجهزة الإعلام الحكومية وغيرها بسبب أسلوب التعبئة العدائية ضد المسيحين والتحريض عليهم. مما ادى إلى كثير من الحوادث المؤسفة. بالاضافة الى دور الأمن وتخاذله بل وتواطؤه مع القتلة والمجرمين. هذا الموقف الأخلاقى الشجاع النابع من وعى عقلانى وحس وطنى إنما يجسد المعنى الذى قصده فهمى هويدى فى كتابه "مواطنون لا ذميون" ويجعلنا نضعه فى مكانة متميزة عن غالبية المتحدثين بالاسلام والمتاجرين به، لكن مقاله "لما هزم شعار الشريعة هو المشكلة" فقد خرج عن كل المواصفات التى اعتدناها فى خطابه .

فقد ابتدأ المقال بالتعبير عن روح السخرية والشماتة بهزيمة المعارضين لبقاء المادة الثانية فى الدستور أو الداعين لتخفيفها بحذف الألف واللام وهجائهم بروح قبلية ممقوتة وصلت الى حد السباب فى ختام مقاله حيث يقول " ربنا لا تؤاخذنا بما كتب السفهاْء منا " .

هذه ليست هفوة من كاتب كبير نحترم قلمه رغم مابيننا وبينه من خلاف فكرى وانما هى جنوح عن أسلوب الحوار الموضوعى وخروج على أداب الاسلام الذى يقول "وجادلهم بالتى هى أحسن" فالمائة والسبعون الذين وقعوا على بيان المثقفين ليس هم كل المعارضين لهذه المادة، بل إن معظم المقالات التى نشرت والأحاديث الى أذيعت كانت كلها ضد هذه المادة ليس لأنهم ضد الإسلام كما يزعم فهمى هويدى بل لأن هذه المادة تؤسس أوضاعا طائفية وتميز بين المواطنين على أساس الدين.

وانا واحد من الذين وقعوا على البيان ونشرت مقالا فى وطنى وفى الأهالى بتاريخ (٢٠٠٧/٣/٨) أشرت فيه الى هذه المادة التى لا تقل خطورة عن حائط الفصل العنصرى الذى أقامته اسرائيل فى فلسطين، لأن حائط اسرائيل هو حاجز مادى يمكن ازالته فى أى وقت دون أن يترك أثرا، أما المادة الثانية فتأثيرها نفسى واجتماعى يمتد الى أجيال وأجيال وقد يؤدى الى مآسى تصيب نشر فى الأهالى وفى موقع الأقباط المتحدون .

حياة الوطن فى الصميم، وهذه الخطورة ليست فقط فى اعتبارها العشرة ملايين مسيحى فى مصر مواطنين من الدرجة الثانية بل فى تسليطها بعض المسلمين على بعض، فبقاء هذه المادة يعنى تكريس الطائفية الدينية والمذهبية ففى مصر ذات الغالبية السنية، يمكن وضع اتشريعات التى تميز بين السنى والشيعى فتعامل الشيعى كمواطن من الدرجة الثانية مثل القبطى أو المسيحى أما البهائى وأصحاب المذاهب الأخرى فهم مرتدون أو كفرة ويطبق عليهم حد الردة. ولعل مايحدث فى العراق وفى فلسطين وفى السودان والصومال بدرجات متفاوتة يعطى عبرة على النتائج المحزنة لربط السياسة بالدين .

كذلك أدى وجود هذه المادة الى تناقضات فى التشريعات وفى أحكام المحاكم والهيئات القضائية كما حدث فى تطليق الدكتور نصر حامد أبو زيد من زوجته الأستاذة الجامعية الدكتورة ابتهال يونس على الرغم من أحدا من الزوجين لم يطلب ذلك ولم يذهب الى المحكمة ولم يكن أمام القاضى أى نص يجيز التفريق بينهما سوى الادعاء بأن نصر حامد أبو زيد خرج عن حدود المعلوم من الدين فى أبحاثه الجامعية، فحكم القاضى استنادا الى أن الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى للتشريع .

وكان المثل الثانى الذى تحدثت عنه فى مقالك (الاهرام ٢٣ يناير ٢٠٠٧) وأشرت فيه الى تقرير هيئة المفوضين الذى كتبه المستشار طارق

البشرى والذى يستند الى هذه المادة فى التصريح بقيام حزب اسلامى باسم الصحوة. وهنا يكمن السر وراء حماسكم لهذه المادة التى تعقدون عليها الأمل فى قيام حزب اسلامى للأخوان المسلمين تمهيداً لقيام دولة الخلافة على أرض مصر .

لكن الحماس لهذه المادة لا يوجب أبداً سب الخصوم وارهابهم بالتحريض عليهم بأنهم ضد الاسلام .

فالمادة الثانية ليست الاسلام والاسلام مكانه قلوب المؤمنين به وهو موجود منذ اكثر من أربعة عشر قرنا ولا يحتاج لهذه المادة لاثبات حضوره. كما أن بيان المثقفين الذى تم التركيز عليه فى مقالك لم يتنكر للآسلام بل دعا الى تعدبل المادة بحيث تصبح "ان الاسلام دين غالبية المصريين، وأن مبادىء الشريعة الاسلامية والمسيحية والمواثيق الدولية لحقوق الانسان هى المصادر الرئسية للتشريع" وأن الأخذ بهذا الا قتراح يستبعد التمييز الدينى تماما ويؤكد دور المسيحية فى الحضارة المصرية كما أن الاشارة الى المواثيق الدولية لحقوق الإنسان تضمن عدم وجود انتهاك للحقوق والحريات العامة وعلى رأسها الحق فى المساواة أمام القانون .

هل الدعوة للعدل والمساواة أزعجت الأستاذ فهمى هويدى وفريقه الى هذه الدرجة، وهل الانحياز الى التمييز بين المواطنين على أساس الدين شىء

يستحق أن تهلل له وتعلن "يقتضينا الانصاف أن نقر بأن الدولة المصرية نجحت فى اجهاض محاولات تسويق الادعاء بأن الاسلام هو المشكلة" هذا الكلام هو تشويه للحقائق وتحريض للمجتمع بل والسلطة على خصومه من المفكريين – كما قال الاستاذ سعد هجرس فى مقاله على موقع (أقباط متحدون ٧/١٣) .

ليس بان المثقفين فقط وانما المعارضة الكاسحة التى ظهرت فى كتابات المفكرين والكتاب وفى الاذاعات المحلية والفضائيات هى التى أزعجت الاستاذ فهمى هويدى وأفقدته هدوءه واعتداله ووصلت به الى مستوى السب والشتائم واتهام المعارضين بالانتهازية تارة وبالسفه تارة أخرى .

والمعارضة لم تجهض تماماً بل نجحت فى التأكيد على مبدأ المواطنة الذى يعارضها الأخوان المسلمون، وهو كفيل بتحقيق التوازن مع المادة لو خلصت نيات المشرعين فى تحصين هذا المبدأ وتفعيله بالقوانين والتشريعات المزمع اصدارها .

فالديموقراطية التى تسوى بين المواطنين فى الحقوق والواجبات هى التى تضمن حماية الفرد وحرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية لجميع المواطنين كما تحمى حرية التعبير وحق الاختلاف فى الرأى وتساعد السلطة اتنفيذية على تصحيح أخطائها كما يحدث فى أمريكا وأوربا، أما الدولة الدينية التى يسعى

إليها الاسلاميون فهى دولة شمولية سلطوية معادية للحرية الفردية وحرية التفكيرو الابداع، فهى دولة عقيمة ومدمرة لروح الانسان وحقوقه وقد جربها النميرى فى الخرطوم وجربتها طاليبان ومازال الخوف منها يشعل المعارك والفتن فى بلاد عربية واسلامية عديدة .

والمتشدقون بالاسلام يمكنهم المساهمة فى تضميد جروح المواطنين فى مصر والعمل على إعادة روح المودة والوئام بين المصريين، تلك الروح التى أصابها التشوه بفعل التعبئة والتحريض ونشر الكراهية التى تقوم بها أجهزة السلطة وخطباء المساجد. فنحن نريد منهم أن يكونوا أصدق إيمانا فيتمسكوا بالعهود التى قطعها المسلمون الأوائل عند غزو مصر أويتمسكوا بحديث الرسول الذى يقول "من آذى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة" فالاسلام ليس حلية يتباهى بها أصحاب المصالح وتجار الدين والذين سودوا وجه الدنيا فى وجوه الشباب ودفعوهم للانتحار باسم الجهاد والاستشهاد .

فالاسلام دين يدعو الى التآخى بين الأديان جميعا ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. هذا الاسلام الذى نتمنى أن ينحاز إليه كل الاسلاميون فيعملوا على تأكيد مبدأ المواطنة والمساوة بين جميع المصريين دون تمييز بسبب الدين أوالجنس او اللغة. مجتمع المواطنة هو الذى يقضى على الفتن وعلى الفساد الذى ينخر كالسوس فى كل أجهزة السلطة. وقد حاول الاستاذ

فهمى هويدى أن يتصدى للفساد فى الصحافة المصرية والاعلام لكنه تراجع دون أن يعلن عن الأسباب التى دفعته للتراجع .

فقد نشر مقالا بالاهرام قال فيه إن هناك أربعة عشر من كبار الصحفيين والقيادات الصحفية يقبضون رشاوى من جهات داخلية وخارجية ويسخرون الصحف لتحقيق أغراض هذه الجهات التى تدفع ووصل الأمر بأحد هذه القيادات الى تغيير عناوين الصفحة الأولى بناء على تعليمات أحد الذين يدفعون الرشاوى وطالب بالتحقيق وهدد بنشر هذه الأسماء ولم نعرف ما هى القوة التى منعته من ذلك والتى أدت الى دفن الموضوع وكأن شيئا لم يكن .

والسؤال الآن : هل لو كان الأستاذ فهمى هويدى وهو كاتب كبير يعمل فى مجتمع ديموقراطى حقيقى يحكمه القانون أكان يمكن أن يفرض عليه السكوت والتراجع على هذا النحو المهين؟ ولماذا رضى بالسكوت والاسلام يقول الساكت عن الحق شيطان أخرس؟ لقد حدث هذا والمادة الثانية موجودة بوضعها الحالى فلماذا لم يتقوى بروح الاسلام ويستميت فى كشف الفاسدين وجرائمهم الخطيرة على الوطن والمواطنين، ولماذا لم يكشف حتى الآن عن هذا الفساد. الا يذكر الأستاذ هويدى ذلك الصحفى الشاب الأمريكى وود وارد فى جريدة الواشنطن بوست الذى استطاع بصدقه وشجاعته أن يزلزل أدارة نيكسون ويسقطه من عرش السلطة فى اكبر دولة فى العالم.؟

ان المقارنة بين الموقفين: موقف كاتب كبير فى قامة فهمى هويدى وموقف صحفى شاب تحت التمرين فى واشنطن بوست. انما توضح بجلاء الفارق الكبير بين المجتمع الديموقراطى ومجتمع المادة الثانية بين المجتمع الذى يحمى الفرد وينتصر للحق وبين المجتمع الذى يسحقه لصالح الانتهازين والفاسدين وتفسير هذه المفارقة يكمن فى الديموقراطية لكن الديموقراطية الحقيقية لا تقوم إلا على العلمانية . أى الفصل بين الدين والدولة. والعلمانية ليست كفراً كما يروج فهمى هويدى واصحابه وانما هى تحرير للدين والضمير الفردى من سلطة الاجهزة القمعية فى الدولة الدينية الاستبدادية .

طبعاً سيقال فى الرد احنا فين وأمريكا فين. الواقع أننا سبقنا العالم كله فى التمدن والحضارة لكن الجمود والتخلف المفروض علينا هو السبب فيما نحن فيه .

هامش:

نشر الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى مقالا بالأهرام (٧مارس ٢٠١٢) قال فيه المواد التى تحدد دينا للدولة أو تجعل الشريعة مصدرا للقوانين غير دستورية لأن الدستور تعبير عما نتفق حوله وليس عما نختلف فيه .

٣- رفض دستور الإخوان

لقد أفاض فقهاء القانون الدستورى فى ذكر الأسباب التى توجب علينا رفض هذه التعديلات لأنها تعود بنا إلى الوراء، فقد أبقت التعديلات على جميع المواد التى تعطى أى رئيس جديد سلطات مطلقة بلا حدود والتى تكفى لتحويل أى إنسان وديع الى ديكتاتور، فالسلطة المطلقة فساد مطلق. وبهذا نعود إلى الوراء وتضيع ثمار ثورة الشباب التى أعلنوها فى ميدان التحرير وهى إقامة مجتمع مدنى ودولة ديموقراطية. ودون خوض فى تفاصيل هذه التعديلات والاعتراضات عليها، فإننى أكتفى بالقول أنها لا تتمشى مع روح ثورة الشباب ولا روح العصر الذى نعيشه فى القرن الواحد والعشرين، عصر العولمة والانترنيت. ومن ثم وضعت العراقيل أمام الكفاءات العظيمة النادرة التى يمكنها أن تقود عجلة التقدم العلمى والرقى الحضارى بحجج عفى عليها الزمن.

فقد اشترطت التعديلات "فيمن ينتخب رئيسا للجمهورية أن يكون مصريا من أبوين مصريين، وأن يكون متمتعا بحقوقه المدنية والسياسية، وألا يكون قد حصل أو أى من والديه على جنسية دولة أخرى، وألا يكون متزوجا من غير مصرية، وألا يقل سنه عن أربعين سنة ميلادية .. وبوضوح شديد نقول إن هذا التعديل قد قصد به سد الطريق أساسا أمام الدكتور أحمد زويل العالم المصرى

الحاصل على جائزة نوبل وكذلك على العلماء الآخرين أمثال الدكتور فاروق الباز والدكتور مجدى يعقوب وغيرهم ممن يتألقون فى الغرب والشرق على السواء، ويتحدث العالم عن منجزاتهم ويفخر بها .

هذه نماذج أثبتت انتماءها الوطنى بدرجة لا ينكرها أحد. فأحمد زويل يحمل مشروعاً للتعليم والبحث العلمى، وفاروق الباز لديه مشروع تنمية بالغ الأهمية لزراعة ملايين الأفدنة فى الصحراء الغربية على مخزون المياه الجوفية، ومؤسسة مجدى يعقوب الطبية وانجازاتها فى جنوب مصر يشهد بأهميتها الجميع إضافة الى زياراته المستمرة لعمل الجراحات الحرجة فى قلوب أطفال مصر وإنقاذ حياة الألاف منهم، هذا وإن كنت أظن أنه لا يفكر أبدا فى هذا المنصب. لكن الدكتور أحمد زويل أعلن أنه يفكر فى ترشيح نفسه. وهذه فرصة ذهبية كان يجب أن يغتنمها الذين وضعوا التعديلات الدستورية وأن يتيحوا له الفرصة وأظن أنه سيكون مكسبا عظيماً لمصر فى هذه المرحلة .

لكنهم وضعوا أمامه العراقيل لأنه يحمل جنسية أخرى غير مصرية ومتزوج من سورية. ولو حسنت النوايا لتحفظوا على الشرط الأول بإضافة عبارة تقول "وعلى من يحمل جنسية دولة أخرى أن يتخلى عنها فى حالة ترشحه لهذا المنصب" أما عدم وضع هذه الإضافة فيمثل عوارا يشين هذه التعديلات ويصمها بالتحيز والانغلاق. وهذا واضح فى تشديد القيد بالنص على "ألا يكون

قد حصل أو أى من والديه على جنسية دولة أخرى" كما أن التعديلات خلت من اى نص على عرضها للمناقشة الشعبية أو جواز الطعن عليها أمام القضاء الإدارى قبل عرضها للاسفتاء كما هو المنطق عادة فى مثل هذه الصياغات القانونية .

وكان الأجدى أن يتعلم هؤلاء من تجربة دولة إسرائيل عند قيامها إذ عرض زعماء اليهود رئاسة الدولة الوليدة على عالم الفيزياء اليهودى الألمانى الجنسية إينشتين. كان المفروض أن يعى ألجميع أن مصر فى حاجة ماسة إلى شخصيات على هذا المستوى وبالذات الذين تربوا فى بيئة المجتمعات الديموقراطية الغربية وتربو على احترام كرامة الانسان. نريد هذه الشتلات الصالحة لنطعم بها شجرة حياتنا التى نخر فيها السوس والفساد بفعل نظام استبدادى استمر خمسين عاما .

لإن الحرية يصنعها الأحرار والديموقراطية لا يبنيها إلا ديوقراطيون عاشوا فى بيئة ديموقراطية وتشربوا قيم الحرية الفكرية واحترام الرأى الآخر وحققوا نجاحاتهم فى تلك البيئة، وهذا مؤكد فيمن ذكرتهم من العلماء الذين عاشوا فى الغرب وتربوا على المناهج العلمية وحصلوا على جنسية هذه البلاد .

نشر بموقع الأقبط كوم فى١٥ مارس ٢٠١١

واتخاذ مسألة الجنسية ذريعة لاستبعادهم يعود بنا الى زمن الحرب العالمية الثانية حين كانت النازية تروج لفكرة نقاء الدم الألمانى وتفوق الجنس الآرى، وهى أفكار شوفونية عفى عليها الزمن. ومن أجل هذا قلت إن لجنة التعديلات لم تستوح روح العصر ولا روح ثورة الشباب المصرى ونسيت أن العقل المصرى تعرض على مدى ثلاثين عاما لهجمة تتارية تعادى العلم والقيم الانسانية كان من نتائجها إنهيار التعليم والبحث العلمى والتخلف الادارى وماتبعه من التدهور فى الصناعة والزراعة حتى أصبحنا عاجزين عن انتاج ما يكفينا من الخبز. وأصبحنا جميعا فى حاجة ماسة إلى رائد يقودنا للخروج من هذا المأزق التاريخى حتى تعود مصر إلى مكانتها كرائدة للتقدم والتحرر والديموقراطية. كذلك فإن حكاية الزوجة الأجنبية لم تعد شرطا يعتد به فيمن يتولى الرئاسة فى بلاد عديدة فى الشرق والغرب، وإذا عدنا الى من تزوجوا بأجنبيات من المصريين نجد طه حسين وحسين فوزى ويحيى حقى والدكتور محمدِ أبو الغار والدكتور عبد القادر القط وآخرين فى الماضى والحاضر ممن قدموا ومازالوا يقدمون الكثير من الخير لمصر وللعالم أجمع. وهذا يدحض كل حجج هذه اللجنة الموقرة التى لم تقدم من التعديلات ما يكفى لإزالة الشكوك فى عودة الماضى، ولهذا فأنا أدعو إلى رفض هذه التعديلات وأطالب بدستور جديد يليق بمصر الحديثة، مصر ما بعد الخامس والعشرين من يناير .

إن وجود عالم مثل زويل على قمة السلطة فى مصر لديه رؤية ومشروع جاهز ثبتت جدارته فى بلاد أخرى فضلا عن امتلاكه شخصية كاريزمية لها حضور قوى وجاذبية كبيرة بين الجماهير تضمن له القبول والتأييد، وتمكنه من تحقيق التوافق الوطنى على كثير من المشروعات الكبرى التى تحتاجها عملية التنمية .

كان يجب على أعضاء اللجنة أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال: مالذى نحتاجه الآن ومن يستطيع أن يقود سفينة الوطن فى أمن وسلام لتحقيق ذلك ؟ لو فعلوا هذا لدفعهم الاجتهاد إلى فتح الأبواب وتذليل الصعاب أمام هذه الطاقات الخلاقة من الذين صنعوا أمجادهم فى بلاد المهجر بالنظر الى واقع يحتاج علمهم وخبرتهم، واقع الثورة الشبابية التى بعثت الروح المصرية الأصيلة التى تؤمن بالعدل والسلام وتتطلع الى عهد جديد من الحرية والعدالة والرخاء .

المؤلف

نســـيم مجلـــى

ناقد وكاتب مسرحى ومترجم

- ولد فى قرية العوايسة مركز سمالوط (محافظة المنيا) فى ١٠/ ٧/١٩٣٤
- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة ١٩٦٠
- حصل على دبلوم الدراسات العليا فى النقد والأدب المسرحى من أكاديمية الفنون عام ١٩٧٠
- حصل على جائزة الدولة للتفوق الأدبى عام ٢٠١٣
- متزوج وله ثلاثة أولاد وبنت

الخبرة:

- اشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم فور تخرجه فى سنة ١٩٦٠ بالمدارس الثانوية .
- انتدب لتدريس النقد واللغة الإنجليزية بمعهد الفنون المسرحية بعد حصوله على دبلوم النقد المسرحى ١٩٧٠
- انتدب للتدريس بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة منذ عام ١٩٨٥ حتى ٢٠٠٠ حيث تفرغ كَليةَ للبحث والكتابة .

الاشتغال بالكتابة:

- بدأ بكتابة الشعر والقصة القصيرة فور تخرجه وفى عام ١٩٦٥ ترجم "بريخت" الذى نشر ١٩٧٢ ثم أخذت مقالاته ودراساته النقدية تتوالى فى المجلات والصحف المصرية والعربية .

مؤلفاته

دراسات نقدية:

- المسرح وقضايا الحرية الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤
- قضايا الإبداع والنقد الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦
- أمل دنقل – أمير شعراء الرفض المركز القومى للإبداع ١٩٨٨
- ابن سيناء القرن العشرين (جراح العظام – محمد كامل حسين) ١٩٨٨
- لويس عوض ومعاركه الأدبية الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥
- صدام الأصالة والمعاصرة (لويس و شاكر) كتاب الأهالى ١٩٩٨
- لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة لأبن مماته – تحقيق وتقديم ٢٠٠٠
- حنين ابن اسحاق وعصر الترجمة العربية – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦
- بطرس بطرس غالى وحلم المدينة الفاضلة دار الشروق ٢٠١٠
- شخصيات لها تاريخ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٥
- قراءات ومراجعات نقدية المجلس الأعلى للثقافة

مسرحيات

- القضية الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨
- المجنونة الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨

- لقاء على القنال مجلة آفاق المسرح ١٩٩٩
- مأساة طبيب الخليفة مجلة مسرحنا فى يونية ٢٠١٤ ثم نشرت عن طريق منتدى الشرق الأوسط للحريات فى كتاب – طبع وتوزيع دار يوحنا الحبيب بمصر الجديدة ٢٠١٦ .

ترجمات الى العربية:

- بريخت الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢
- ترجمة عشرين مدخلا فى الموسوعة العربية العالمية مؤسسة نشر الموسوعه بالسعودية
- الحب عند الفرنسيين مجلة الهلال عددى مايو و يونية ١٩٧٧
- الأسد والجوهرة تأليف : وول شوينكا –المسرح العالمى للكويت١٩٩٧
- القديس مرقس وتأسيس كنيسة الإسكندرية الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩
- حصاد كونجى ، تأليف: وول شوينكا– المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
- سكان المستنقع، تأليف: وول شوسنكا – المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
- فرانز كافكا– تأليف: رونالد جراى– المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
- محاكمة سقراط – تأليف : أى . أف . ستون المشروع القومى للترجمة ٢٠٠١

- العصر الذهبى للإسكندرية تأليف : جون مارلو – المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٢
- ثلاث مسرحيات لشوينكا (الموت وفارس الملك، عابدات باخوس، والسلالة القوية) المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٤
- كيف نقرأ ولماذا تأليف : هارولد بلوم –المركز القومى للترجمة ٢٠١٠
- تتمسكن حتى تتمكن تأليف: أوليفر جولد سميث. المركز القومى للترجمة ٢٠١٠
- مدرسة الفضائح تأليف: ريتشارد شريدان– المركز القومى ٢٠١١
- هذه حال الدنيا –تأليف: وليم كونجريف – المركز القومى ٢٠١٢
- مذكرات سجين– تأليف: وول شوينكا – المركز القومى للترجمة ٢٠١٣
- بريخت رجل المسرح– تأليف :رونالد جراى ،المركز القومى للترجمة ٢٠١٤
- الأسطورة والأدب والعالم الأفريقى" تاليف : وول شوينكا ، المركز القومى للترجمة ٢٠١٤

==========

مراجعة الترجمات الاتية:

- مجال الدراما – تأليف: مارتن اسلن مهرجان المسرح التجريبى ١٩٩٢
- مسرح الشارع – تأليف : ألان ماكدونالد وآخرين . الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩

- مسرحيتان من الأدب النيجيرى : ١- محنة الأخ جيرو ٢- تحول الأخ جيرو, تأليف : وول شوينكا, سلسلة إبداعات عالمية المجلس الوطنى للثقافة بالكويت ٢٠٠٤
- الغنيمة – تأليف: جوى أورتون – المركز القومى – ٢٠١٠
- صورة مصر –تأليف : مارى آن ويفر – المركز القومى
- مولد النراجيا اليونانية – تأليف : الفيلسوف نيتشة . تحت الطبع، الهيئة العامة للكتاب

nasimmijalli@hotmail.